الجثة المطوقة

مسرحية ثورية

«... حيُّ القَصَبة، هناك وراء الخرائب الرومانية، في أقصى الشارع يجلس أحد الباعة القرفصاء، أمام عربته الفارغة. زقاق مسدود من أحد طرفيه.. يُفْتَح من الطرف الآخر على الشارع، مؤلفاً معه زاوية قائمة.

كومة من الجثث تغطي واجهة الجدار... أَذرُع، ورؤوس تتحرك حركات يائسة.

يصل بعض الجرحى ليموتوا في الشارع. يُلقْىَ ضوءٌ على الجثث التي يصدر عنها أولاً أنين خافت، لا يلبث أن يتجسد شيئاً فشيئاً.. ويصبح صوتاً متميزاً هو صوت الأخضر الجريح».

الأخضر : هنا شارع الوَندال. إنه شارع في مدينة الجزائر، أو قسنطينة. في سطيف، أو غلمة، في تونس، أو الدار البيضاء – لا فرق –.

آه.. إن الفسحة لتضيق عن إظهار شارع الشحاذين، والمُقْعَدين بجميع أبعاده، وزوايا رؤيته!

لتضيق عن سماع نداءات العذارى المسرنمات(١)... لتضيق عن السير خلف توابيت الأطفال.. عن استيعاب

(١) السرنمة: المشي في النوم.

همهمات المحرّضين، تلك الهمهمات المقتضبة التي تختلط بموسيقى المنازل المغلقة.

هنا وُلدت.. هنا ما زلت أزحف لأتعلم الوقوف على قدمي.. حاملاً نفس جرح «الصرة» الذي فات زمن خياطته منذ أمد بعيد.

إنني أعود إلى النبع الدامي.. إلى أمنا المستعصية على الفساد.. إلى المادة النقية التي لا شائبة فيها، فهي حيناً تولد الدم والقوة، وهي تتحجر أحياناً في احتراق الشموس الذي يحملني إلى المدينة المضيئة في حضن الليل المنعش.

أنا الرجل القتيل لغير ما سبب واضح. وسأبقى كذلك ما دام موتي لم يُعْطِ أية ثمرة.

كحبة قمح صُلْبَة سقطت تحت ضَرَبَات المنجل، لتتموَّج إلى الأعلى، وتستعد من جديد لتلقِّي الضربة التالية على البيدر. إنها تضم الجسد المسحوق إلى الشعور بالقوة التي تسحقه في انتصار شامل حيث تعلمِّ الضحية جلاَّدها استخدام الأسلحة.. وحيث لا يعرف الجلاد أنه هو موضوع التعذيب.

إن الضحية لتموت.. وهي تجهل أن المادة ترقد منيعةً في الدم الذي يجف، والشمس التي تشرب.

هنا شارع الوَنْدَال، شارع الأشباح، شارع المجاهدين..

هنا شارع قطيع الصبية المختونين، والعرائس اللواتي تزوجن منذ أيام.. هنا شارعنا.

لأول مرة أشعر به يخفق كالشريان الوحيد في ارتفاع الضغط، حيث أستطيع أن ألفظ الروح فيه، دون أن أفقدها.

لم أعد جسماً.

إني الآن شارع..

إن مدفعاً سيكون ضرورياً لهم بعد اليوم إذا أرادوا قتلي.

وإذا ما قتلني المدفع، فسأبقى أيضاً هنا.. كشعاع كوكب يمجِّد الخرائب، ولن تستطيع أية قذيفَةٍ أن تصيب مأوايَ بعد الآن.. إلا إذا ترك أحد الأطفال المبكرين في النضج جاذبية الأرض ليتبخر معي في شذى نجمة، وسط موكب من مواكبنا الفريدة، حيث لا ينظر أحد إلى الموت إلاَّ كلعبة مسليِّة.

هنا زقاق «نجمة».. نجمتي..

إنه الشريان الوحيد الذي أريد أن ألفظ روحي فيه.

إنه زقاق يسوده الظلام الدائم.. زقاق تفقد منازلُه بياضَها كالدم، بعنف كعنف الذرَّة على وشك الانفجار.

«صمت.. ثم يعود صوتُ الأخضر إلى الكلام..»

هنا في الظل، تتمدد الجثث التي لا يريد رجال الشرطة رؤيتها..

لقد تنقَّلَ الظل على شعاع النهار الوحيد، ومكثت كومة الجثث على قيد الحياة، تطوف بها موجة عارمة من الدم، كتنين مصعوق يلملم قواه ساعة الاحتضار، غير عالم بعدُ ما إذا كانت النار ستأتي على رفاته كلها أم على إحدى القشور الحية التي يتألق بها عرينه.

هكذا تمتد حياة الجماهير أمام سرير موتها بالذات، في عملية الإبادة الرهيبة، العملية التي تزودها بالسلاح، وتفتح لها طريق الخلاص.

وفيما أنا صريع في زقاقي، في مسقط راسي، يعود إلى فمي طعم قديم.

ولكنه لم يعد طعمَ المرأة التي وهبتني الحياة.. ولا طعم تلك العشيقة التي احتفظ بعضتها.

إنه مَذَاقُ كل الأمَّهات.. وكل الزوجات اللواتي أشعر بعناقهن، يرفع جسدي بعيداً عني، بحيث لا يبقى مني

إلا صوتي فقط.. صوتُ الرجل، ليخطب خطاب جمع المذكر.

إني أهتف باسمهم جميعاً.. إني لأقول: نحن. وأغوص في أعماق الأرض، لأبعث الحياة في الجسد الذي يخصني، وسيكون لي إلى الأبد.

وفي انتظار البعث، يجب عليَّ – أنا الأخضر القتيل – لكي أُنشَرَ من وراء القبر، وأقوم برثاء نفسي، يجب عليَّ أن أجمع فيَّ إلى مدِّ الرجولة جَزْرَ الجماعة لكي تستطيع جاذبية القمر أن تجعلني أحلق فوق قبري في الأعالي ممتداً إلى أبعد مدى..

هنا أبدأ بإحصاء نفسي.. لم أعد أنتظر النهاية..

نحن مَوْتَى.

إنها جملةٌ لا تُصَدَّق...

لقد متنا قَتْلاً...

سيأتي رجالُ الشرطة لالتقاطنا.. أما الآن، فإنهم يتجاهلون وجودنا.. إنهم لا يجرؤون على اجتياز الظل، حيث نتجمع أكداساً من القتلى، وحيث لا تستطيع قوةٌ أيةُ قوة أن تفرقنا بعد الآن..

نحن موتى.. لقد أبادونا دون أن تشعر المدينة بنا.

كان أولَ من شاهدنا امرأةٌ عجوز تجر أطفالها وراءها.

يبدو أنها أثارت بعض الرجال الأشداء، فإذا هم يتغلغلون بيننا بغتةً مسلحَّين بالمعاول والعصي، يريدون دفننا بالقوة.

لقد اقتربوا منا بخطى الذئب.. رافعين أسلحتهم فوق رؤوسهم.

كان سكان الحي يراقبونهم من أعماق مساكنهم المطفأة، يتوزعهم القلقُ والرعبُ لمرأى الأشباح المنكبة على الجثث.

لقد ارتكِبَتْ مذبحة بشعة..

وقبَعَ الأهالي سجناءَ دورهم طَوالَ الليل.. لم ترقد لهم عينٌ حتى انبلاج الصباح.. الصباح الذي يوقظني الآن.

كأنما كانوا يتوقعون أن يُذْبَحُوا هم أيضاً.. لذلك راحوا يتهيأون للمذبحة منطوين على أنفسهم، في عزلة خانقة.

ثم توقفت الأشباح ذاتها.. عن الغدوّ والرواح.. وأخلى آخر الهررة المكان.. أماً المارة الذين أصبح مرورهم نادراً فقد كانوا يضطربون من حشرجاتنا، ويتوقفون لحظة عند ساحة الاشتباك.

ولم تمر دورية واحدة لتعكر تأملات المارة الخاطفة.

إن هؤلاء المارة يحسون الآن إحساساً جديداً تجاه المناضلين الغامضين الذين ما يزال موجهم يهدر تحت أقدامهم، في هذا الشارع الذي كانوا يرونه دائماً قذراً معتماً.

في هذا الشارع حيث انبثق فجأة مجد المذبحة الرهيبة، ليفتح الزقاق المسدود على جولات قادمة.

«نجمة في خمارها.. تغادر غرفتها وتمضي في اتجاه الزقاق.. تمزق خمارها وثوبها.. وخدها.. وهي تولول وتنتحب..»

نجمة :

انظروا إلى الصدر الأعمى

بعيداً عن الحبيب المفطوم

إنه لن ينضج أبداً..

هذا الثديُ الذي اسوَدَّ من طول الفراق.

لم يعد هناك فم يعرف كيف يثيره حتى الزبَد..

الأخضر يرقد هناك..

مع آخرين سواي..

لقد حذرتموني..

كنت قد حلمت بأزيز الرصاص.
ولكن كان عليه أن يعود عند الغروب
كان عليّ أن أخفيَ عنه شيئين
دموعي، ومديته..
وها أنذا الآن قد بقيتُ وحدي
وحدي.. نَذْراً للظلمة الموحشة
أنا الأرملة التي لم يُسْلَبْ بهاؤها قط
أنا الزهرة العمياء
التي تبحث عن رجلها المختار
رجلها الذي يحوم حول تويَجها
رجلها الذي اختطفه القربان
قربانٌ أحرقت فيه الجثث كقرية النمل.
هكذا هجرني الأخضر...
ذلك النملةُ الذَّكَر..
لقد مرَّ بشذى فراشي المتكبر
ليسقطَ في هذه الكومة من الجثث المجهولة..

حسن : منذ غادرنا الأخضر.. نحن هنا بدون أخبار. لم تتحرك نجمة طوالَ النهار.. وهاهي ذي تنطلق الآن صامتة تحت ستار الليل.

نعم .. هذا شبحها، الذي يبتعد متمسحاً بالجدران..

إنني لم أسمعها تخرج..

مصطفى : «ينهض فجأة من غفوته..» نجمة! لا يجب أن ندعها تذهب. نادِها. لا تنس أن الأخضر تركها هنا.. ومعنى ذلك أنها ستكون في حمايتنا.. ولو لم يخطر بباله مثل هذا قط.

انظر إليها.. وهي تتخطى الأموات. لم تستطع الدهشة ولا الرعبُ، أن يُثْقِلا مشيتها.

هاهي ذي تتوقف أمام بوَّابة الموت. إن خمارها يتطاير في الليل، وترتفع أطرافه، حتى ليظنه المرء مركباً جانحاً في عرض البحر، ليكشف لنا الأفق البعيد.

إلحقْ بها حالاً. قد يغمى عليها بين اللحظة والأخرى.. إن أبرع لفتات الغزالة النافرة ليست في أغلب الأحيان إلا وقفة على مرمى البندقية.

«يخرج حسن متسللاً للقاء الشبح. وبعد لحظة مظلمة على المسرح تدخل نجمة هائجة ممزقة الخمار يتبعها من بعيد حسن. تجلس نجمة على أحد المقاعد.».

طاهر : «بضحكة مغتصبة» قهوتكِ ما تزالُ ساخنة.. ولكن قولي بربك أين كنت تودين الذهاب؟ عند أقربائك؟.

مصطفى: دعها تشرب قهوتها. ليس لنجمة أسرة. «إلى نجمة» ليس لكِ، بكل بساطة، إلا الانتظار. إنكِ تعرفين الأخضر خيراً مما نعرفه..

طاهر : «معاوداً الكرة» لا يترك الإنسان أسرته في سبيل مجنون كالأخضر.

حسن : «وقد عيل صبرُهُ» اعلم جيداً أيها «الجيفة». لو لم يكن رفيقنا غائباً لما فتحنا لك باب دارنا قط. إننا لا نتسامح معك احتراماً لشعركَ الأبيض.

طاهر : الأخضر.. الأخضر.. إني لا أسمع غير هذا الاسم.. أليس الأخضر ابني قبل كل شيء!.

حسن : إنه ابنُ أمه.. أوضح لك ذلك.. لماذا تريد أن تثير هنا موضوع عقمك؟ ما أنت إلا زنبور، عجوز، مِهذَار.

«صمت.. ثم تبدأ نجمة نجوى خافتة. وهي تُدني الفنجان من فمها.. وكأنها تطوي نفسها على كلماتها..».

نجمة : لم أسمع جواباً على نداءاتي إلا وقع خطوات جندي وعبثاً أتيه في الأماكن المحرمة، حيث يجر المرء نفسه دون أن يتمكن من الانتقام من هذه الوحوش المسمرة إلى الأرض بجزمة لا يمكن مهاجمتها، هذه الجزمة التي يلفنا وجودها كوعدٍ بالمعركة.. المعركة التي لابد

من خوضها.. المعركة المحتومة للانتقام الذي نُعِدُّهُ دون كلمة.. دون سلاح.. ولكنَّ لنا على الأقل إيماناً بأننا سنُقهَر ولكن بكبرياء من لا يُقْهَر أبداً..

وما دام الصديق الوحيد قد هلك.. فإني سأنتظره الآن أكثر من أي وقت مضى، سأدوس بقدميَّ الترابَ والدم، كعجلةٍ مهرولة إلى المَسْلخ بحثاً عن شَبَهٍ لمن فقدتْ.

ما أكثر الوجوه المعفَّرة بجانب قدميَّ!.. ما أكثر الأشباح المبعثرة التي تلاحقني.. ولكني لا أرى أيَّ أثر للأخضر..

مصطفى: كثيراً ما يحتفظ الأخضر بالصمت عندما يُنادى.

طاهر : أما أنا.. فسأكون قد هدرتُ قوايَ جريًا كالبائس وراءَ هذا اللعين.. هذا الولد الذي تبنَّيتُهُ. ورحتم تعنفونني على محبته، أنا الأب الوحيد الذي عرفه هذا الشقيُّ منذ جاء إلى الدنيا حتى اللحظة التي أدرتم فيها رأسه بأفكاركم الجديدة التي لا أدري من أين أتيتم بها..

لقد فُقِد الأخضر الآن.. بعد أن وقعَ تحت سيطرة رفاق لا يعرف أحياناً أسماءهم. لم يفقدْ بالنسبة لي، لأبيه فحسب، بل فقد بالنسبة لأمه التي تركها منذ صغِره..

عندما هجَر المدرسة. في ذلك اليوم الذي قررتم فيه أن تهزأوا برجال الشرطة، وأن ترفعوا راياتكم غير المفهومة.

ومنذ ذلك الحين.. أصبح هذا العمل ديدنكم. لم يعد رجال الشرطة يكفون.. لقد أصبحوا يبعثون لكم الآن. بالجنود، والنتيجة؟ ما هي النتيجة؟ جثث الشباب. هذه الجثث المكدسة على قارعة الطريق. هؤلاء أيضاً هم من «الرفاق» الذين من أجلهم تركتم كل شيء.. الكتب المدرسية وأدوات العمل والبيوت، والأسر، لتُعيدوا حشودكم ومغامراتكم أبداً بانتظار أن يبعث بكم رجال الشرطة والجيش الواحد تلو الآخر إلى مصيركم المعلوم.. إلى كومة الجثث المجهولة الأسماء.. الجثث التي لا تقدرون حتى على مواراتها التراب.. في الوقت الذي يبقى فيه رفاقكم – وربما كان الأخضر من بينهم– مطروحين تحت سمعكم وبصركم في ذات الشارع الذي كانوا يؤمونه لحضور اجتماعاتكم.

مصطفى: لقد ولدنا في هذا الشارع كلنا. وليست الشرطة هي التي ستخرجنا منه بالقوة. أما الجثث التي تشير إليها فقد طالما شاهد الزقاق جثثاً أخرى غيرها. أنت نفسك. أيها الشيخ المسكين. سيشاهد الزقاق مرور نعشك من هنا.. وسنمر جميعاً من هذا الطريق.

ليس عدد الجثث هو الذي يثقل على شارعنا.. إن ما يثقل عليه هو موت الجبناء في عزلتهم وانطوائهم، موت المتخوفين المضطربين الذين هم على شاكلتك..

أنتم أيها الآباء المتقاعسون المتخلفون. الذين تخونون الأجداد.. أنتم تظنون أنكم تؤمنون آخر أيامكم بإرسالنا إلى «ورشات العمل».. إلى المدارس التي يطردنا منها باستمرار أولئك الذين استطاعوا أن يجعلوا من نيركم، من عبوديتكم شيئاً عزيزاً على قلوبكم..

إنكم تُعجبون بالقوة، بمظاهر الأبَّهة، بأسلحة المرتزقة والمأجورين التي انتصرت على أجدادنا وأجدادكم.. لم يعد للنضال أيٌّ معنى في نظركم. فماذا يعني كل ذلك؟ هل يعني كل ذلك؟ هل يعني إلا أن نفوسكم الخانعة قد قادتكم إلى عار الانسحاق الذي تتقبلونه بغبطة؟ لقد قادتكم إلى أن تغذوا أحلام العبودية حتى على أكتاف أبنائكم.. تحذونَ بذلك حذوَ الغاصبين، المتسلطين على رقابكم.. هم أيضاً يظنون أنهم يحبونكم بسلامة طوية.. «إن الحثالة دائماً سليمةُ الطوية». ما داموا يعيشون على كَدِّكم ويشركونكم في خزيهم. وهم يحملون الشعور بأنهم ليسوا إلا آباءً موجِّهين.. يا للآباء الموجَّهينَ.

ولكنْ .. ثقوا بأنكم ستكونون آخر المخدوعين. إنَّ أبناءكم، على الرغم منكم، قد شبُّوا في الشارع.. لم يكن الوقت كافياً لترويضهم على النير. إنهم يرونكم تَنفقون[١] بسرعة حاملين معكم أحلام الهدوء والاستكانة..

لن نعمل بعد اليوم «لأواخر أيامكم».. لن نعمل لأواخر أيام الخَدَم، والعبيد..

طاهر : في بلد الشقاء هذا.. تسيل الدماء كل عشر سنوات .. لقد رأيت كثيراً من الصبية الأغرار المشتعلين حماسةً مثلكم. يركضون دائماً نحو الانكسار. ألا خبرّوني ماذا استطعتم أن تصنعوا أنتم وأعلامكم[٢] أمام المدافع الرشاشة؟ جميع الانتفاضات تهدأ بنفس السرعة التي يهدأ بها عويل الأطفال. تدمر بيوتنا بالمدافع، ويقبل رجال الجيش والجيش المحلي يعزِّزون الشرطة.. إنهم يجلدونكم، يُهينونكم.. إنهم يسوقونكم إلى العمل بالقوة.. إنهم يطلقون النيران على مواكبكم اللعينة.. وكل ذلك

---

(١) نفقت الدابة: هلكت.

(٢) إشارة إلى أن المظاهرة الكبرى التي انطلقت يوم ٨ أيار ١٩٤٥ لم تكن تحمل إلا أعلام الاستقلال.

ينعكس بلاؤه على أبرياء.. هل يستطيع أطفال كاتب المحكمة التسعة الاعتماد عليكم؟ الأطفال التسعة الذين أُحرِقَ والدهم حياً بعد أن رُشَّ جسمُهُ بالبنزين، لماذا؟ لأن الغبيَّ احتفظ ببعض النسخ من منشوراتكم.

حسن : يخيَّل إليَّ أنك تبتهج بتوجيه هذه الحملة إلينا..

مصطفى: دع الغراب ينْعَب، فليس هو ما يقلقني .. ولكنْ.. قل لي يا حسن.. أتذكر ذلك الشاب الذي أدانته المحكمة العسكرية بتهمة توجيه نظرة مهينة إلى موظف «منهم» أثناء قيامه بالوظيفة..؟

حسن : وكيف لا أذكر؟ ألم يكن في خليتنا؟ لقد قال لنا بعد هربه من السجن: إذا كان الانتقام مستحيلاً.. فلماذا يبقى الإنسان في هذا البلد؟.

طاهر : وهكذا ترك معظمكم هذا البلد، وذهبوا إلى فرنسا. لقد أكلتم على مائدة أعدائكم. لقد تكلمتم لغتهم، وارتديتم نفس البزَّةِ التي كانوا يتصيدونكم بالرصاص من تحتها..

أما أنا.. فقد كنت أشرب واحتفل، بالنساء في الأعياد، ولكني كنت أبقى في بلدي.. لهذا لم أكن في يوم من الأيام جندياً، ولا عاملاً في معاملهم الشهيرة هناك.. إني أستطيع بدوري أن أتَّهمكم بقلة الإخلاص.. إن لم

أقل بالخيانة. لقد عاد الأخضر من باريس منذ سنتين، ولكنه لم يأتِ لزيارتنا مرةً واحدة بعد عودته. إن أمه المسكينة لا تغادر النافذة ترقب الطريق طوال اليوم، عساها تراه ماراً في الطريق..

لقد فقدتُ شهية الطعام والشراب من تصرفاته..

حسن : الشراب على الأخص.. يبدو أن رائحة الخمر قد أصبحت تثير فيك القَرَف..

طاهر : منذ ابتدأت بممارسة الصلاة.. لقد أخذت الفكرة عن أحد التجار الطيبين.. إنكم لا تستطيعون أن تتصوروا أي شعور يخامر النفس حين يصعد الإنسان إلى المئذنة بملابس بيضاء وجسم نقي.

«يدخل رسول من الحزب»

الرسول : السلام عليكم.

«يجلس ويقدم السجاير»

طاهر : ما أخبارك؟ هل من جديد؟

الرسول : «دون أن يلاحظ إشارة التحذير من مصطفى» عليكم بالهدوء الآن .. إنهم يريدون أن يتعرفوا مدى قوتنا بإثارة اشتباكات جديدة بيننا وبينهم.

حسن : سيقولون بأن أوروبيين آمنين قد هوجموا.. ألحجةُ ذاتُها.

الرسول : إن أهم الأماكن التي نلتقي فيها قد كُشِفَتْ، وهي الآن تحت المراقبة الدقيقة. لذلك لم يبق لنا إلا أن نلتزم بيوتنا.. وننتظر.. على ألا نتيح لهم أية فرصة لاقتطافنا وإذا ما فقد جميع المسؤولين كالأخضر وسواه.. فكأن الحزب قد جُزَّت عنقه.

حسن : «مشيراً إلى نجمة المنهارة» لم نقرر بعد وضع الأخضر في قائمة المفقودين.

الرسول : عليكم أنتم أن تبحثوا عنه وتجدوه ..

مصطفى: كيف يتسنى لنا البحث عن الأخضر ما دامت الأوامر تقضي بالتزام بيوتنا؟ نحن لسنا متأكدين من وجوده بين الضحايا.. ألا تعتقد أن رجال الشرطة قد تركوا الجثث في مكانها لغرض واحد، هو إيقاعنا في الفخ!..

الرسول : «يترك كرسيه» ذلك ممكن. «يخرج».

نجمة : «تقف فجأة» سأعود لرؤيتكم.

طاهر : إنها مجنونة.

حسن : اسكت.

طاهر : لماذا تخرج؟ لكلٍ ما قُدِّر له.

مصطفى: أتدعها تفعل ما تشاء؟ كان عليك أن ترافقها..

«تخرج نجمة، يتبعها طاهر على مضض».

حسن : تقول إنها كانت متشاجرة مع الأخضر صباحَ المظاهرة..؟

ما أغرب ذلك!.. أنا على يقين أنها تظنه ميتاً دونما ضرورة، لسبب بسيط هو أنه لم يعد يريد مقابلتها. إني أتساءل، عندما خرجت للمرة الأولى منذ لحظات، أتساءل عما إذا لم تكن قد رأت الأخضر صريعاً في الزقاق.. ألا ترى معي أنها تتصنع الهدوء لئلا تكشف عن ألمها؟

مصطفى: ليس هناك شيء أشد التصاقاً بالمرأة من حدادها.

حسن : يا ليأسها! إنك توافق معي على أنها تأنف أن تجعله يختلط بيأسنا..

مصطفى: إذا افترضنا أننا نجهل ما رأته بجلاءٍ مثلنا.. فإنها تظن أنها تشفق علينا.

حسن : إنها تداري حزنها الذي ستنوء تحت حمله إذا ما تكلمنا بصراحة.. ولكن كيف تركها الأخضر؟..

مصطفى: لقد أمضينا الليل كله نعد المظاهرة. وعند الفجر راح الأخضر يتحرك بسرعة. كان يريد إغلاق الباب. وصرف المجاهدين.. وأخذ العمل كله على عاتقه. وأخيراً.. لم يبق إلا نحن.. نحن الثلاثة أنا ونجمة والأخضر. كنا نغالب النعاس. كأنما كانت نفوسنا تحدثنا

بأن هذه المظاهرة لن تنتهي كسابقاتها. كانت نجمة منزوية في ناحية.. ولكن لم يكن يبدو عليها أنها عابسة أو مقطبة. كنت أنا وحدي أقترب منها أحياناً، وأتحدث إليها. وكان الأخضر قد بدأ يكتب. وأخيراً نهضت نجمة لتفتح الباب. وبسرعة كسرعة قبضة من النحل، كانت الشمس قد هجمت فوق رؤوسنا، وكنا نرتعش تحت لذعاتها الخفيفة، ونحن لم نزل منهكين من عناء الليل. كنا أنا ونجمة قد اقتربنا من الباب لاستنشاق نسمات الربيع. لقد أُخذنا بدفء الفجر الذي فاجأنا بسحره، ولم نجرؤ على أن نعكر ذلك السحر أو نقطع علينا متعته. أعادنا إلى المكان صوت الأخضر قائلاً: لا داعي للحزن الآن. كانت النافذة مفتوحة، وكانت نجمة تتنهد وهي مغمورة بالضوء ورائحة الصباح.

لقد همس لها أيضاً: «لا مكان للحقد هنا..» وابتعد، وهو يوصيني بوجوب تأمين المناوبة.

حينئذ فقط فهمت أنهما قد تشاجرا. عرفت ذلك من الطريقة التي كانت تنظر بها إليه، وهو يتوارى بعيداً عنا، كانت نظرةً حزينة قاسية.

«تخرج نجمة.. تشاهد الأخضر بين الجثث. لقد نهض من بينها بصعوبة.. ملابسه ووجهه. كلها ملطخة بالدماء. يترنح

في الشارع كالمشدوه. تبقى نجمة صامتة.. وبصرها عالق بهذا المشهد المفاجئ دون أن تتمكن من التقدم خطوة واحدة».

الأخضر : ها أنذا أرى نفسي من جديد في بلدتنا. إنها تأخذ شكلها من جديد. إني ما أزال أحرك أعضائي المحطمة، وينتهي شارع الوَنْدَال في عينيَّ، كما ينهار في الليل تحت عاصفة هبت قبل دقيقة محددة، وينطوي في قلب الأحجار، في صدور الحشرات التي ينبشها الريح والصقيع من أوكارها حتى الصباح. حينئذٍ، يخيَّل إليَّ أن جداراً هائلاً قد ارتفع بيني وبين المدينة. إني أود أن أخرج من هذا الموت الدائم، ومن هذه المدينة الميتة التي أراني مدفوناً فيها.

«طلقات نارية تأتي من بعيد، تبدو كأنها غير حقيقية.. يرددها الصدى».

على شجرة مُزعزعة، تناضل أسرتي في سبيل البقاء، أسرتي الغنية بالدم وبالجذور، قبيلتي ذات المزار المهجور الذي عاش قبلي في عَبَق البن المحمَّص.. البن الذي لم يسبق لجيراننا أن أعطوا شيئاً منه لزهرة. زهرة أمي الحاضنة الرؤوم التي لا أجرؤ على رؤيتها

من جديد قبل تحريرها من رِبقة ذلك الرجل ذي السحنة الباهتة الذي تزوجها في غيبة أبي الحقيقي، أبي الذي قضى في سيارة مع إحدى البغايا.. هذا الأب الذي كانت ميتته الشنيعة إحدى اللجج التي ابتلعت بقايا القبيلة. إنه الميت الذي لا يثير فيَّ أي شيء.. إنه لا يُذَكِّرني إلا بقسوة القدر.

إن حياته القصيرة قد تركتني متخلفاً بعيداً إلى الوراء على طريق مقفر، أشبه بسمكة ميتة وُلدت فاقدة الحس خارج أحشاء أمها، سمكة رأت نفسها تولد من جديد، حين أفرغها قِرش[١] ضخم في عملية هضم كالحة، فإذا هي تتخطى هيكله المحتضَر بعد أن مَرَقتْ من فكيه الواهيين. هكذا فإن موتي يجتاز موتَ أبي السابق لأوانه ولم يبق لي إلا ذلك الرجل الذي تبناني، لكي يحوِّل أمي زهرة عن قبري المقبل. لَم يبق لي إلا الأصدقاء الذين تعود إليهم نجمة الحبيبة المنفية، وها أنذا أُصرع مرتين، ولكني أنهض من جديد.. وحدي.. كالتماثيل المهشمة التي تبعثها الزلازل إلى الوجود باعثةً فيها الحياة عندما

---

(١) القرش: نوع من سمك البحر الضخم.

تحرك العوالم وتهزها بسُعارٍ يخطفُ الأبصار، تريد أن تطهره من هذا التدنيس الأعمى للزمن، للموت، للانحلال ذاته. الدنس الذي لن يستطيع تحرير أفكارنا الباقية منه إلا تلك اللحظة الحاسمة التي لا دواء لها ولا رجعة. تلك التي تحتل مكانها دائماً في المراكز الأمامية من جبهة القدر.

يا للقِرش الفاني الذي يتضاءل، ويخفف من وثباته أمام السباحين المذهولين، هكذا تبدو روح الأجداد متخلفةً على تاريخي، الآن حين أرقد في الشارع كالحجارة، يدوسني الزمن بأقدامه، وهو يعيرني آخر شكل من أشكالي، دون أن يستطيع التغير معي، أو حلَّ رموز قناعي.. الآن حين يتنازع الزمن مع الموت على ذكري الكامن بعيداً عنهم لن يكون لي أي تقويم للزمن بعد اليوم، ولن يعرف دمي الذي أريق بإسراف أي حساب ولا قاعدة في تدفقه.

«طلقات نارية..»

لم نُنْفَ حتى الآن من الحياة.. كلُّ ما هنالك أننا غُلبنا فقط في أرض المعركة حيث أزحف وحدي على ذقون القَتَلة، وأنا ما بين الحياة والموت.

لقد قضى الربيع بأن أبقى كالأرض البور، تلفني رائحة العوسج المهشم، أتذوقها كما يتذوق القنفُذُ المتراجع إلى جحره ألم الرصاصات الطائشة، مندَّياً التراب في بطءٍ بحشرجاته الأخيرة.. دون أن يلفظ أنفاسه.

«**طلقات نارية..**»

ها أنذا وحيد، وفي ظلي تحوم النداءات الخطرة لمدينتنا المهجورة عن بطولة، والمغزوة بوجودنا، المدينة الدائمة الشباب، المعبَّدة على حافة الخرائب.

«طلقات نارية.. طلقات نارية جماعية مديدة، تتخللها فترات من الصمت، تترك المجال للأخضر ليتوقف قليلاً عن هَذَيانه، ثم ينتصب بملء قامته، ليلفظ ببطء المقطع التالي كلمةً كلمةً.. عائداً بذلك إلى وعيه..».

الأخضر: إني لأسمعُ هديرَ الدم يبشر بالحياة، أسمع من جديد صرَخات أمي وهي تعاني آلام المخَاض العظيم، أحس مضاربَ قبيلتي تعيش تحت لَفَحات السَّمُوم التي تتغلغل في عروقي، ثم ارتفع في عتمة الغسق نحو الأجداد.. أجدادي الذين تهتز قاماتهم كأشجار الحَوْر تحركت أوراقُها ورقة ورقة، وانتفضت إذ تدفق فيها نسغ الحياة الذي لا يُقهر.

ويتابع الليل خطاه.. وتمر أمام عيني مواكبُ فرسان النوميديين[1] يملأون الفضاء، ويجددون عزمَهم للمعركة الفاصلة، حين تدق ساعة المغرب مُؤذنة بالخلاص.

«طلقات نارية.. وقع حوافر فرس.. طلقات من جديد.. خطى أفراس.. تخبُّ.. يخيم بعدها السكون».

وأخيراً .. أراني أمر على ركام الزمن، حاملاً قلبي المحطم الذي يجمع شتاتَ العصور بين جنبَيْه، وأعود – لا تمثيلاً هازلاً، بل تصميماً وإرادة واعية – أعود الرجل المقاتل العنيف الذي ما زال يدوس الأشباح.

«الأخضر ينظر إلى ما حوله. تاركاً الفكرة المسيطرة عليه رويداً رويداً. ثم يتابع بشيء من السخرية».

كنوزي كلها بأثقالها قد أصبحت في قبضة الأيدي المتكالبة التي تشدني إلى المقبرة، ومدينتنا المنهارة ليس فيها إلا الفرح بالحياة مع الجدران الصم».

«الأخضر يترنح على حافة الجنون، في ضحكة عصبية..».

---

(١) نوميديا: اسم الدولة الجزائرية في عهد الرومان. يشير بذلك إلى عراقة الجزائر في كفاحها ضد الاستعمار منذ أقدم العصور.

نجمة : «تصرخ وهي تعدو نحوه» أخضرَ!

«يوشك الأخضر على السقوط، فتمسك به نجمة، وتساعده على الاستناد إلى العربة. البائع يغط في نوم عميق يعود الأخضر إلى التخبط في خواطره من جديد..».

الأخضر: إن الرجال الذين تلقَّفهم الموت، وتركوا لوحشته الرهيبة، يضعون عليّ أيديهم المأخوذة في أطواق ضخمة آتية على ما أرى من أجساد يرقبها البلى.

نجمة : لا أريد أن أسمع..

الأخضر: نحن في هذه المدينة التي لا يطيقها الغرباء لا نطرد أحداً. لقد آوينا الجميع.. ولكن كل غازٍ من الغزاة، كائناً من كان، يستطيع أن يطعننا بخنجره مرة أخرى، وأن يخضب بدوره قبورنا بفرضه لغته الغريبة على أيتامنا وهو يقيم بهدوء بين أهله.. كل ذلك، دون أن يحسب أي حساب لاحتجاجاتنا المتصاعدة من وراء القبور.

لا يستطيع أحد أن يسمعنا لا لأننا لا نصيح، إننا لم نتقطع عن إعلان غضبتنا. لم ننقطع عن النداء، نداء أرضنا السليبة التي اغتصبوها، وجعلوا منها مقبرة ومنفىً دائماً لنا.. أليس من نهايةٍ لهذه الخدعة؟.

نجمة : «وهي تمد يدها لتغلق فمه» إني لا أسمع.. لا أسمع ماتقول..

الأخضر: «يجاهد ليعود إلى مابين الجثث». لقد كُتبت لي الحياة، فدعيني أخفي ما بين جنبيَّ، أنا الروح التي قطعت آخر صلاتها بالموتى، تلك الأدمغة التي تتمزق كأزهار تفتحت في غير أوانها على أرضها المحرمة عليها..

أيتها الزهرة التي تضطرب وتتلوى على قيد خطوات من الرحيق المسفوح، أنتِ يانبتَةَ الأدمغة المظلمة التي اجتازتها أسراب النحل الرصاصية المدَوِّمة في رؤوسنا، القابعة في زوايا الجمود..

نجمة : لا أريد أن أسمع..

الأخضر: اذهبي عني.. لنفترقْ دون ألم عن قلوبنا المسيخة. إن الروح وحدها قادرة على تخطي هذا العالم مهما قلَّت الكلمات التي يقولها الإنسان وهو في الرَّمق الأخير. إني أخلُدُ للصمت.. إني أحس بك حارَّة على طرف لساني، واضرب مجاذيفي بصمت، لأصل إليك عندما ينحسر مدٌّ البحر، وفي غمرة التيار يتلقاني صدرك كصخرة بارزة من تحت الماء، فيعوق انطلاقي ويصيبني بالشلل. إني أسبح بصعوبة بالغة، أسبح بحركات مشلولة نحو المغارة

التي ينتظرني فيها النوم العميق. وها أنذا أجيء لألفظ عندك روحي، لم يعد يستهويني الغرق. إني أفضل موهبة الكلام على النوم، شريطة أن تكوني أنتِ سنَدي. ولكنَّ شواطئ جسدك ليست إلا لججاً وصخوراً.. وها أنذا أرسي على الشاطئ وكلي جراحٌ قاتلة.. يكفيني أن أرفع صوتي لأقع في الشَّرَك المميت..

نجمة : لقد ترقبتك في أعماق الأخاديد، وعرفت ما هو أشد من صيد القنافذ في خبايا صدور المجرمين. وكذلك كنت دائماً تضيعني..

الأخضر: نعم، لقد قضيت أيامي في حفرة، أترصد الذين لم يقعوا في حبائلك، كانوا يمشون على صدري، وكنت تتجاهلين ذلك. كنت تهمهمين كالقطة الراضية ساكتة عنهم، وإذا ما هممت بالوقوف في وجههم فإن عنادك كان يجرني إلى سقطات جديدة، يستغلها ويفيد منها كل واحد من خصومي ليفرضوا أنفسهم عليَّ في قفَصي.

هكذا.. كان عليَّ أن أشاطرك سيئاتك، وأحمل عذابي مقهوراً..

نجمة : إنك تكذب، ما هذا العذاب الذي تتكلم عنه؟

الأخضر : كان سوء تفاهمنا يهب خصومنا الجرأة، ويتيح لهم الفرص. كنت وحدي قادراً على تبديد جهلهم. كان الخصوم يتحركون، كانوا يذرفون الدموع حيناً فوق حفرتي. ولم أكن أستطيع أن أدعهم وشأنهم، كما لا أستطيع مداراتهم أنا الذي كنت ما أزال أحمل أثر مخلبكِ. ومع ذلك فإن صوتي يزيد الحملَ ثقلاً، والطينَ بلة. حتى اللعناتِ كانت تزيد في اعتبارك وتنقلب إلى أمجاد لك..

نجمة : «ذاهلة.. تضيف بلهجة حازمة.» إنها ليست إلا نوبة غيرة..

الأخضر : لكن لو كنت أبطلتُ هذا السحر، إذاً لكانوا أذعنوا حين يرونني أترك مضجعك الآسر، لكانوا أثاروني ضدك، ولبرزَتْ أمامي حينئذ قمة العذاب. ولكني لم أكن أريد بلوغ قمتك لعلمي بأن الفراغ يكمن في طرفها الآخر.

نجمة : إنك لم تشأ أن تسيطر عليَّ، أن تغزوني غزواً كاملاً في يوم من الأيام. أتذكُرُ ذلك الصباح الذي تركتني فيه؟ لقد ودعتني بالتهكمات والسخرية.

الأخضر : كان الجنود مستنفَرين في ثكناتهم ذلك الصباح، على أتم استعداد للتدخل عند أول إشارة. وكان قادة حركتنا يجهلون ذلك. كل ما كنت أعرفه هو أن رجال الشرطة

لابد أن يداهموا المكان في الوقت المناسب. كنت في انتظار رجالنا المكلفين بتأمين النظام حين رأيت طلائعنا تطوَّق؛ إن الشعب يجيء دائماً إلى شارع الوَنْدال. وكان ذلك أنه وقت التدفق إلى الشارع جماعات جماعات.

كان رجال الشرطة قد اتخذوا أماكنهم منذ الليلة السابقة، وتمركزوا في عدة منازل من الشارع. كنا جميعاً منهوكي القوى، وانهمر وابلٌ من الرصاص الطائش من إحدى الشرفات، وتدافع الجمهور وازدحم على بعضه، كان كل شيء تصل إليه أيدينا يصلح للقذف ولكننا كنا من دون أية حماية. وأخيراً وصل الجنود، وانهمرت نيرانهم علينا، ووجدت نفسي مُلقى على الأرض، وفي فمي مَذاقٌ قديم. لم أكن أسمع ولا أعي شيئاً مما حولي، ولكن عينيَّ كانتا لا تزالان مفتوحتين. وما هي إلا لحظات حتى أخذت الجماهير تترنح راقصة بنشوة الدم. لم أحشرج، أو على الأقل لم أسمع حشرجاتي، كما لم أسمع حشرجات الجرحى الآخرين من حولي. كنت أحس جسمي ثقيلاً كالرصاص، وكانت الضوضاء تملأ المدينة. كان يبدو لي بكل بساطة أن الشعب كله بدأ يرقص. لم يكن الأمر محزناً. فقد كانت معي بعض

السجائر. لم أكن أرى بركة الدم التي كنت أرقد فيها. كان الجوّ صحواً جميلاً وكانت المظاهرة ما تزال مستمرة، خُيِّل إليَّ أن الجنود كانوا من عالم آخر.. وأما رجال الشرطة فقد نسيتهم تماماً.. ولكن عندما أخذت الجماهير تنسحب، وبدأت الساحة تقفر، عند ذلك فقط أحسستُ لأول مرة بخَوَري.

«فترة صمت، ظلمات، يلوح شبحا نجمة والأخضر، طلقات، أوامر، أنين، زمجرات الجماهير المنتشية بمذبحتها، جلبة، اشتباك، ضوء. المسرح خالٍ إلا من البائع الذي يغفو أمام شجرة البرتقال. لقد هبط الليل. تبرز نجمة وحسن ومصطفى وهم يحاولون التسلل من منزلٍ إلى منزل»

مصطفى: لا جدوى من الذهاب أبعد من ذلك؛ لن نعثر عليه.

حسن : لقد اختفى أثناء الاشتباك الثاني.

مصطفى: «بلهجة قاسية» كان علينا أن نعنى به، وأن نحبسه بين جدران المنزل بدلاً من تركه في هذا المكان اللعين.

نجمة : لم أتركه هنا. لقد قدته من ذراعه عند ما سمعنا صوت الرصاص والصراخ. كان مستنداً إلى هذه الشجرة. لقد توسلت إليه أن يتبعني، فلم يجبْ وسمعنا صوت مجموعة من الرجال المسلَّحين تمر بقربنا

فأعدتُ التوسل من جديد، صحتُ به أن يذهب إلى أي مكان يشاء إذا لم يكن راغباً في مرافقتي. ولكنه كان يهذي باستمرار محاولاً الوقوف على قدميه. وفي هذه اللحظة اندفعت الجماهير الهاربة من النيران، فاجتاحتني في طريقها، فوقعتُ على الأرض ثم نهضتُ ووقعت من جديد. كان الرجال يتساقطون من حولي، ويجرفونني في تيارهم كلما حاولت النهوض، كأن إرادَتهم الأخيرة لم تكن إلا الانسحاق على جسد امرأةٍ مجهولة.

مصطفى : «بلهجة أشد قسوة» نعرف ذلك جيداً. إن المرأة لتجد نفسها مركز الصراع حتى تحت النيران. وهكذا أضعتِ الأخضر، وسيأتي يوم تضيعين فيه رفاقه أيضاً إذا لم يكن قد حصل فعلاً.

حسن : «يريد تحويل غضب مصطفى في اتجاه آخر.» هذا البائع لم يتزحزح من هنا.. لابد أنه رأى الأخضر.

«يقتربون من البائع، يهزه حسن بعنف».

البائع : «منتفضاً» لعنةُ الله على الكافر الذي أيقظني. آه.. إني أعتذر. لقد حسبتكم من الجنود.

حسن : ألم ترَ الأخضر؟

البائع : كثيرون في بلدنا يحملون هذا الاسم..

حسن : إنه رفيق، كل الناس يعرفونه هنا.

مصطفى: «يقترب هائجاً» ليس هذا وقت المزاح. قل لنا أرأيته أم لا؟

البائع : كلا.. لم أره..

مصطفى: أحقاً، أنك لا تعرف رجالنا. إنك قابع في الشارع طوال الوقت، ثم تقول إنك لا تعرفه مع ذلك؟

البائع : «خائفاً». إني لا أعرف إلا عملي، وأطفالي.

مصطفى: وما عسى أن يكون عملك في هذا الشارع! ألا تتكلم مع أحد!

البائع : آه، يا إخواني.. إني بعيد عن السياسة. ماذا تجدي السياسة؟

مصطفى: هناك من يفيدون من السياسة.. هناك من يفيدون من الشرطة أيضاً.

البائع : يا إخواني، عندي أطفال سبعة. إني أجاهد طول يومي كي أكسب قوتي كما أستطيع. أيكون مثل هذا محرماً علَيَّ؛ أيحرَّم على المرء أن يكسب لقمة عيشه؟

مصطفى: أسمع.. أنت تعتمد على رجال الشرطة. إنهم يسهلون لك كسب رزقك.. فماذا تقدم لهم مقابل ذلك؟

حسن : سأقول لك ماذا تقدم لهم؟ أتريد أن أتكلم؟

البائع : «مذعوراً» أيها الأخوة، عندي سبعة أطفال. إذا ما استطعت إشباعهم نموا وكبروا.. وأسهموا في تحرير الوطن.

مصطفى: أترى خلاصَ الوطن في أن نصبح مخبرين للشرطة؟ يا لها من طريقة للخلاص!

نجمة : دعوه.. إنه شيخ عاجز.

مصطفى: إنك تقوم إذاً بمهنة الكلاب هذه وأنت مستلق على عربتك.. تغط في النوم.

«يجلس مصطفى القُرفصاء بجانب البائع، مضيقاً عليه الخناق.»

إنك لا شك تحلم بالحاكم، وما سينالك منه. أليس كذلك؟ إن لك لأحلاماً ملأى باللهاث كأحلام الكلاب.

البائع : «راكعاً» أعذروني، أيها الرفاق، لقد حسبتكم أعداء. كلنا عرضة للوقوع في الخطأ، لقد كان صديقكم جريحاً.

حسن : «يقترب من الناحية الأخرى». وإلى أين التجأ؟

البائع : «مشيراً إلى نجمة» لقد رأته هذه المرأة. لقد تحادثا ملياً قرب عَرَبتي، دون أن يشعرا بوجودي قربهما ثم وقع الاشتباك الثاني، ودارت المعركة فلم أعد أرى شيئاً.

أقسم لكم أني لم أتردد في أن أجمع متاعي، وأهرب على الفور.

«ظلام، ضربات صنج مديدة، يتلوها نور.»

«القائد يثرثر مع ضابط آخر مشيراً إلى خارطة لأفريقيا تبدو مرتسمة على الشاشة.»

القائد : انظر إلى تاريخ الدولة النوميدية. إنها ليست إلا شمال افريقيا اليوم. مع الفارق البسيط هو أننا حللنا محل الرومان في مراكز القيادة. لم يكن من السهل في الماضي أن يُهزم فرسان نوميدية. إننا نملك اليوم الطيران، وقد قُسِّمَت البلاد إلى ثلاث دويلات، ولكن الأرض مع ذلك هي الأرض. لن نستطيع إغراق سكانها بالرغم من أننا استطعنا أن نستقدم عدداً من المعمرين الأجانب يفوق أية نسبة وجدت حتى الآن في أية دولة إفريقية. ففي مراكش وفي تونس كما هنا ينقلب الرجال (أهل البلاد الأصليين) ضدنا إنهم يعودون إلى الصراع، بعد أن برزوا من خلال القرون السحيقة وهم يعضون الرمال ليعودوا من جديد، أولئك النوميديين المهزومين الذين تكتلوا لحملات جديدة ضارية.

«ينتقل الضوء. يركز على الأخضر المغطى بالتراب والرضوض، مواجهاً مارغريت.»

مارغريت: هل هاجمك أحد؟

الأخضر : من الصعب أن أقول ذلك.

مارغريت: لقد أوقفت فرامل السيارة وهي توشك أن تدوس جسدك كنت وحدي على المقود. إن لك حظاً هائلاً. لقد أوقفتها في اللحظة المناسبة حين تحركت، ووصلت إلى سمعي بعض الكلمات الفرنسية.

الأخضر : لقد أخطأت دون شك. فقد كان هناك جرحى آخرون.

مارغريت: لا. لا. أنا على يقين من ذلك. لقد كانت كلماتك غير واضحة، ولكنها كانت فرنسية بلا جدال..

الأخضر : «خجلاً» هذا كل ما أفدناه من المدرسة.

مارغريت: ماذا تقول؟

الأخضر : «مستدركاً» لا شيء!

مارغريت: لقد وجدت عناء كبيراً في نقلك؟ من حسن الحظ أني ممرضة. إني أحب العناية بالناس. ولكنها ليست مهنتي. إن والدي لا يرغب في أن أعمل، محتجاً بأن راتبه يكفينا لقد كنت مع ذلك في باريس أقوم ببعض

أعمال التمريض أحياناً، ولكن العمل هنا يثير التقزز. وأخيراً تمكنت أن أوقف النزيف..

الأخضر : إني أشعر بتحسن.

مارغريت: سأخبر والدي إذا شئت. بإمكانه أن يحضر سيارة إسعاف.

الأخضر : أتعتقدين بأن والدك...

مارغريت: إنه ضابط.

«الأخضر ينتفض، مارغريت تحدق إليه بانتباه، قبل أن تعود إلى الكلام بصوت منخفض.»

مارغريت: أأنت غريب: لا.. أنت عربي.. إني أرى ذلك الآن عندما أنظر إليك من كثب. إن ذلك الدم يسري فيك.

الأخضر : نعم إن ذلك الدم يجري في عروقي.

مارغريت: يا للغرابة! هؤلاء الآخرون.. إني لا أستطيع أن أنظر إليهم.. إنهم قذرون.. يخيل إلي أنهم قمل.. إنك لا تشبههم.. تمدد على سريري.

الأخضر : سأنام عند رفاقي.

مارغريت: سأتركك وحدك. تمدد على سريري.

«تخرج مارغريت من الغرفة، وتدخل نجمة..»

نجمة : عفوك! إن رفاقك يبحثون عنك. لقد شوهدت تدخل هذا المنزل.

الأخضر : أنت أيضاً تتلصصين عليّ؟ أعبد أنا، أم طفل صغير؟

نجمة : لقد تبعتك طويلاً.. كلَّت قدماي من الجَرْيِ وراءَك.. لست أنا التي ستحرسك.. لتحتفظَ بك.. إنك ترقد أبداً غارقاً في نظرتك ذاتها.. إذا كان يصح تسمية تلك العنكبوت التي تركض على جبينك نظرة. إني أتبعك، وأنت تعميني، وتضربني، عليَّ تثقل روحك القاسية، إني ارتدي ثياب الحداد، ولكنك لم تمت إلا بالنسبة لي.

الأخضر : لن يفقد أبداً

ذلك العاشق الذي تأتي نسمة جديدة

فتدفنه قبل أوانه..

إني أقدم لنيركِ الوحدة

وأشق أخاديدي لكِ

وتظلين الأرض المحرَّمة عليّ

إن غيابي سيجعل عزلتك مورقة.

نجمة : لقد زرعتني دون عودة

في أعماق ضلوعي

وها أنت الآن تتبدد

أيتها السحابة المنبجسة التي وُعِدْتُ بمائها

الأخضر : كالكيس المقلوب على قفاه

يتصاعد دخاني، أنا الممتزج بكِ..

واغرقكِ بطوفاني أيها الفم المغلَق بإحكام.

أنا المترع بسُحُبك ذات الرائحة العنيفة.

كالكيس المقلوب على قفاه

يتصاعد دخاني أنا الممتزج بك.

أيتها الأرض الموطوءة.. أيتها الرفيقة غير المرتقبة، بقمحكِ الصلب الذي باغتته رقدة طويلة..

نجمة : أنا التي رأت ضَرَبات المنجل تخطفك بعيداً عنها.

الأخضر : ولكني سأخرج من الأهراء التي طُمِرتُ فيها.. ولن تعرفي الحملة القديمة التي ستجتاحكِ..

بعد أن طُرحتِ طويلاً في زوايا النسيان.

بعد أن رقَدَ عُرْيُكِ رقدة الشتاء

إني أجر روحي إلى الموت الذي ينسى نفسه.

لتخلَعْ ثوب زفافها

تلك الساحرة التي يسمونها القَدَر..

لترقصْ – وهي عذراء– حول الناي حتى تستنفد قواها..

لتحاولْ دون جدوى إخفاء انحطاطها السريع كسقوط الشلال هناك.. في أعماق المغاور، مغاور الأعراس.

سيظل الحبٌّ، والموتٌّ، والروح

صرَخاتِ ندم موجعة دفنها الأجداد

لتبقى عبرة لنا

أشبه بكارثة أشعلها الشقاء والحرمان من جديد، في مخيَّم العشاق البائسين، الضائعين في الظلام، الذين لن يستطيعوا التعرف على بعضهم من جديد دون أن يحرقوا آخر عَبراتهم في نضال مرير

تشعر فيه الروح المنكودة بكل وحشتها..

«يدخل حسن، ومصطفى..»

مصطفى: «مشيراً إلى الأخضر» هاهو إنه مازال حياً يثرثر..

الأخضر: انتظرْ..

«تدخل مارغريت فزعةً من رؤية المجاهدين الماثلين أمامها.»

نجمة : لا تخشيْ شيئاً.. إننا ذاهبون.

الأخضر: «متأثراً» لا. لا تفعلوا ذلك. ولنبق معاً.

«مشيراً إلى مارغريت» إنها من باريس..

مارغريت : سأغلق الباب..

نجمة : «متألمة» لا تتعبي نفسك..

مصطفى : «بلهجة المذنب» لقد أتعبت نفسها فعلاً.

«خمسة مصابيح كاشفة تسكب أنوارها على المسرح. ينصب المصباح الأول على وجه الأخضر المتورم فيظهره بجلاء. وعلى ضوء المصباح الثاني تظهر مارغريت التي تحدق إلى الأخضر بشغف، ويبدو هذا الحب الجديد الذي تَفَتَّحَ دون أن يشعر به الجريح. ويكشف المصباح الثالث عن التحدي العاجز لنجمة التي تنظر نظرة مُرَّة تذيب رقة غريمتها. يتذبذب النور الرابع مع النظرة المزدوجة التي يوزعها مصطفى بين نجمة والأخضر، الأخضر الذي بدأ يمقته، ونجمة التي دفعته إلى القنوط التام. ينطفئ المصباح الخامس الموجَّه أولاً إلى حسن المنتحي جانباً، وحيداً، وشريكاً للمجموعة في آن واحد. ثم تلف الظلمة مصطفى فمارغريت، فنجمة، ينطفئ النور الأخير على شفاه الأخضر في الوقت الذي يبدأ فيه الكلام..»

الأخضر : «محاولاً إذابة الجليد، وتبديد الكآبة.» ألديك شراب؟ هاتي أي شراب كان.. ستشربين معنا، سنشرب.. بدون حقد.

«تحضر مارغريت شراباً، يشربون نخب الأخضر.»

حسن : وجراحك؟

الأخضر: ما تزال جديدة.

مارغريت: لقد نزف كثيراً.

نجمة : ستملئينه كما يملأ الزقّ.

مصطفى: «بغيرة» لقد أصبح عديم الإحساس، مثله كمثل تلك الشجرات التي يمزقها منقار اللقلق حتى اللب.

الأخضر: «منحنياً فجأة نحو مصطفى» إن هذا اللقلق نفسه «مشيراً إلى نجمة» يجعل أسنانك تصطك هَلعاً. ولكني أشعر بالراحة. إننا إخوة. والغربان لا يحطم الواحد منها الآخر والآن قل لي أين رجالنا؟

«يبدو مصطفى متبلد الإحساس، لا يحير جواباً. صمت. ثم يتطوع حسن للإجابة».

حسن : لم يبق غيرنا في المنطقة. علينا أن نعيد تجميع رجالنا. إن منزلنا هو أحد المنازل القليلة التي لم تدَاهمْ، ولم يُنْتَزَع ساكنوها. تقول الصحف إن حالة الحصار هذه لن تطول. ولكن جميع الرجال المشتبه بهم، والذين تتراوح أعمارهم بين الثامنة عشرة

والستين، يقتادون بعيداً عن المدينة في قوافل عسكرية.

الأخضر : «لمارغريت» ما رأيُ أبيكِ في الموضوع؟

مارغريت : «ساهمة» إنه ينفذ الأوامر.

مصطفى : نعم.. نعم أنا أعلم أن الكلمة الأخيرة للمُعَمِّرين. فهم الذين يتخذون القرارات. لقد جعلوا باريس توافق على توزيع السلطات بين الجيش والجيش المحلي. إن الحاكم مشلولٌ تماماً. ويمكننا أن نتوقع كل شيْ.

الأخضر : هل نستطيع إحصاء خسائرنا؟

مصطفى: إني لا أرى إلاَّ فئات ثلاث: الضحايا، والأسرى، والناجون. يخيَّل إليَّ أنْ لا نهايةَ لذلك. وإذا ما نظرنا إلى طرف الهوة الآخر لا نرى إلا الظلام الدامس يتراكم. إنهم يُعِدّون كارثة ما.. رغم ما يبدو على الجو من هدوء.

الأخضر : إن خشيتهم من انتقامنا تجعلهم يدفنون انتصاراتهم بأيديهم.

مارغريت : لا تحلموا بأن تلوم باريسُ الجيش، وأن تُسَفِّهَ أعماله.

مصطفى : نحن أدرى الناس بما يَعنيه تسليم السلطة إلى المعمِّرين. إنهم سيتوجهون إليكم. سينقلون الإرهاب في يوم ما إلى فرنسا ذاتها. لقد بدأوا منذ الآن يضايقونكم. لقد بدأوا يغررون بكم. لقد اكتسحوكم. إنهم مرتزقتكم الذين لا يفتأون يطالبون بمزيد من القوة مهما أُعطوا. إنهم لابدّ منقلبون ضدكم في أوج غطرستهم الخسيسة.

مارغريت: «مذعورة» اخفضْ صوتك. إنه يسمع كل شيء من مكتبه.

مصطفى : مَنْ؟

مارغريت: أبي!

«يتبادل مصطفى والأخضر النظرات. وعلى صراخ مارغريت، يطير الباب قطعاً تحت جزمة القائد، فإذا هو يُصرع، في الوقت نفسه، برصاص حسن الذي يصيبه إصابة دقيقة من قرب.. لحظة.. تترنح مارغريت ثم تحزم أمرها، وتمسك بزمام القيادة. تقفز فوق جسد أبيها وتمسك بالأخضر الذي يحاول التملص وسط الدوار الذي أصيب به..»

مارغريت: لنحملهما معاً بسرعة. إن العربة تقف أمام الباب.

«تحمل مارغريت الأخضر الذي يتوقف عن التخبط، يغادران المسرح، يتبعهما مصطفى، حاملاً جثة القائد. تبقى نجمة وحسن وحدهما..»

حسن : «ما يزال تحت تأثير فعلته» إنه أبوها حقاً!

نجمة : وما أهمية ذلك؟

حسن : إنك لتُخطئين حين تكرهينها. إنْ هي إلا فتاةٌ غريبة، أُبْعِدَتْ عن وطنها، وأُرْغمتْ على حياة الفراغ والثكنات. لقد عاشت إلى جانب أبٍ لا يعرف الرحمة، فخنق تفكيرها بالتحزُّب، والتعصب الأعمى. لقد رمتها وحدتها بيننا كالمُسَرْنَمة(١). إنها تنتقل إلى صف الشباب كما ينتقل الإنسان إلى صف الأعداء ماشية على دمها دون أن تعرف هؤلاء الذين انضمت إلى صفهم. لقد حررتها من عُزْلَتها إحدى ضربات القدر..

نجمة : (عابسة) لا يهمني ذلك.

حسن : ألا تشعرين بالغَيْرة؟

نجمة : دَعْنا من ذلك.. يا لكَ من غبيٍّ، وأنت تحمل مسدَّسَك! ألم تلاحظ بأن الأخضر ومصطفى يتبادلان الكُره حين يكونان أمامي! وكيف ربطتهم الصداقة من جديد أمام تلك الفرنسية...

حسن : إنَّ غَيْرةَ الحب تتراجعُ أمامَ صداقة السلاح.

---

(١) السرنمة: المشي في النوم.

«ظلام.. نور. ضربات صنج.. جوٌّ مَشْربٍ غاصٍّ بالناس. تتحدث نجمة وسط المشهد.»

نجمة : لقد آن أن أتحدث عمّا وَقَع للأخضر عندما ودَّع طفولته. كان يخيَّل إليه دائماً أنه قد أُعدَّ للحياة في بلد أجنبي لن أسميه. أما هذه الحوادث التي سأشرحها فقد وقعتْ له بعد أن نضجت فكرة رحيله بعدة سنوات. كان أبوه، (أبوه بالتبني)، يعيش في مقهى ليلاً نهاراً. حتى أن الأخضر ليَذكر جيداً كم رافقه إليه المرة بعد المرة، عندما كانت أعوامُ الجفاف تترك الرجال من دون عمل، كان العمالُ والفلاحون وصغارُ الموظفين، حتى المحامي نفسه، لا يكادون يغادرون المقهى، كانوا يشربون قليلاً أو كثيراً، كانوا يلعبون الورق أو الدومينو، هكذا كانت تمر تلك الأيام القاسية.

كان المحامي يقرأ الصحف، وهو يفرك عينيه، وكان الآخرون يقلِبون رؤوسهم إلى الوراء ليفكروا في مصائرهم، كان أبو الأخضر يريد ألا يلحظ وجوده أحد، وكان يردِّد، «إن الصحف تشبه إلى حد ما تعاويذ السَّحرة، لا يستطيع جميع الناس أن يحلوا

رموزها»، وفي ذات صباح داهمت الشرطة الشارع عدة مرات فلاذ الجميع بالفرار، لاجئين إلى المقاهي، والحوانيت، والحمامات.. حتى المحطة.. أما الأخضر فقد دخل إلى المقهى،

«تترك نجمة المسرح، يشاهد العمال والفلاحون، وصغار الموظفين في وسط المسرح، وبينهم طاهر، يجلس مصطفى في أقصى المقهى، يتسلل الأخضر للوصول إليه..»

الأخضر : «وقد لاحظ وجود أبيه بالتبني؛ يهمهم،» المقهى مزدحم اليومَ.

طاهر : لقد زاد الحضور واحداً بمجيئك.

الأخضر : إني لا أبحث عنك يا أبي. أنا لا أطلب إلا أن تدعني، وشأني..

مصطفى: إجلس أيها الرفيق، واحترم أباك قليلاً.

«في هذه اللحظة يتوقف المحامي عن قراءة الصحيفة، ويندفع بصوت خافت».

المحامي : لقد تم ذلك أخيراً!. لقد حُكِمَ على رئيس الحزب بالسجن عشرين عاماً، مع الأشغال الشاقة.

أحد الموظفين: «بلا مبالاة» هو ذا المحامي يبكي!

المحامي : لن تكون أنت من سيتحمل عناء إخبارنا ذلك.

الموظف: اعذرني أيها الأستاذ. ولكن لك طريقة سيئة في نقل الأخبار.

مصطفى: محكوم طبقاً للقانون؟ عفواً أيها الأستاذ، كيف حكم على الرئيس؟

المحامي: «بلهجة جدية» طبقاً للقانون، ولرَغبات المعمِّرين. لقد أطبقَ عليه الإثنان. يا له من عقابٍ محكم!..

الأخضر: وهو الآن دون دفاع؟!

المحامي: ليست هي المرة الأولى. سيموت في السجن طبعاً.

فلاح : إذاً، فلم يعد هناك من أمل؟

مصطفى: يخيلُ إليَّ أيها الأستاذ، لدى سماعك، بأنه سيحكم علينا جميعاً، عاجلاً أو آجلاً.

المحامي: آه! يا بنيّ.. لقد فهمتني. إن القانون يهددنا دون توقف. وهو يشعرنا بوجوده بمثل هذه الأحكام. ومع ذلك فالقانون لا يصيب الجماعات والكتل أبداً. إنه يتركنا نعيش في خضوع، ما دمنا نعيش كتلة واحدة. ولكن، إذا ما بدا لساخطٍ – ويالسوء الطالع – أن..

طاهر : مرحى.. أيها الأستاذ.. علِّمْنا. زدنا معرفة..

الأخضر: تريد أن تقول إن رئيس الحزب كان الشخص الوحيد الذي لجأ إلى التمرد، وإنه يعاود ذلك دون

أن يتمكن من إقناعنا. تريد أن تقول إننا لم نسر معه حتى النهاية..

المحامي : بلى، يا بني! وأنت أيضاً تفهمني.. إني أرى أن من السخف أن يخرج المرء من شعب جائع جاهل، كشعبنا، ليقع من تلقاء نفسه تحت ضربة القانون. أنتم ترون بأم أعينكم كيف قضي على هذا المسكين قضاء مبرماً. إن الحكم عليه لن يفيد في شيء.. اللهم إلا في إدخال قسط أوفر من الفزع والخوف إلى قلوبنا. وكل ما نفعله نحن هو أن نطاطئ أعناقنا أمام غارات سلبنا، وتجريدنا من كل ما نملك..

الأخضر : مرحى.. يا أستاذ.. يبدو عليك أنك تعرف الكثير من القضاة. إنك تتحدث عنهم بحكمة..

المحامي : «بتواضع» إني مسجل في نقابة المحامين منذ عشرين عاماً.

الأخضر : إني لأفكر في هذا الرجل الذي حكم عليه. إنه هو أيضاً مسجل في هذه الهيئة لمدة عشرين عاماً، ولكن في الجانب الآخر من المحكمة. أتفهم ذلك أيها الأستاذ، أتفهم ذلك؟

المحامي : «مشتتاً» نعم، لقد عرفت كثيراً من القضاة.

الأخضر : هل عرفتَهم معرفةَ إنسان لإنسان؟

المحامي : بالتأكيد.. إنني مسجَّلٌ منذ عشرين عاماً...

الأخضر : ليس قانونهم صعب المنال إذاً. يكفي أن يتسجل المرءُ في النقابة. إنك تبعث فيَّ الرغبةَ للقيام بذلك.

المحامي : «بانزعاج» لقد فات الأوان لإتمام دراستك أيها الشاب.

الأخضر : اقتربوا. اقتربوا جميعاً. نستطيع كلنا أن ننتسب إلى هذه النقابة.. ولكن في الجانب الآخر من المحكمة، فإن القانون سوف يبدل موقعهُ. ستكون عقوبتك مخففة أيها الأستاذ..

أحد العمال: ليْدفَع ثمن المشروب.. هذه المرة.

المحامي : كان اللهُ في عونكم يا أولادي... إني ذاهبٌ الآن لأرى ما إذا كانت الصحيفة قد وصلت...

«يخرج المحامي، فيحييه الجميع مسرورين لخروجه.»

مصطفى: الأستاذ لا يحب حماستنا.

أحد الموظفين: إنه رجل حر، ولكنه يعاني بعض المتاعب.

أحد العمال : إني أفضل رأسَ العبد الذي أحمله.

الأخضر : «لمصطفى» هيا بنا.. حان وقتُ العمل.

مصطفى: «يُخرج دفتراً من جيبه» فُتِحتْ الجلسة.

«عمالٌ، وفلاحون يقتربون في صمتٍ وسكون. يبقى طاهر وحده وراء المكتب.»

الأخضر : «لطاهر» سنبدأ.. حالما تغادر المكان.

طاهر : «إلى صاحب المقهى» بمثل هؤلاء الزبائن سوف تثري.

«يخرج طاهر، يتبعه بعض صغار الموظفين. يبتدئ الاجتماع بضجةٍ خفيفة، ثم يُسْمَع قسمٌ من الحديث الذي ينطلق بصوتٍ منخفض مثيراً الانتباه.»

مصطفى: ... إن «زنزاناتهم» ليست كزنزاناتنا. إنها لا تكفي أبداً لعزلِ مساجيننا. يجب أن تُهيَّأ مهاجعُ عامة رغم وجود المجرمين العاديين، مساجين الحق العام. ينبغي ألاَّ ندعهم يفاجئوننا. علينا أن ندخل السجون، وأمام أعيننا خطةٌ محكمة لتحرير جميع من فيها، حتى المجرمين العاديين، مساجين الحق العام لأنه ليس لنا أن نحكم على من يعيشون في الطرف الآخر من سلاسلنا.

«تنطفئ الأنوار واحداً إثرَ واحد. بينما ينهض المجاهدون، ويمضون كلٌ في سبيله. يخيم الظلام على شبحَيْ الأخضر ومصطفى المنعكسين على الشاشة. تبدو بحجم كبير قضبانُ السجن الحربي، وفي داخله الأخضر، ومصطفى، وحسن، مجتمعين في زنزانةٍ واحدة. يتعرف المتفرجون، على

التوالي، على وجوه السجناءِ الثلاثة الذين لن يروهم بعد هذه المرة طوَالَ المشهد. ولكنهم يسمعون أصواتهم المتمايزة، المنقولة بمكبرٍ للصوت. أمام القضبان الظاهرة بشكل مجسم، ومن جانبي الزقاق الذي تُطِل عليه كوة الزنزانة، تقِفُ جُوقةُ الجمهور على صفين متراصَّيْنِ. كل شخصيات المسرح ليستْ رمزية، ما عدا مارغريت الباريسية، التي تتميز عن المجموع بأناقتها، بغدواتها وروحاتها الحزينة وسط الزقاق. إنها تنتظر وحدها أخبار الأخضر، بينما يزاول الجمهور أعماله، يتجول، أو يغفي؛ يجري كل ذلك في جو من الانطواء على الذات.. انطواء ضروري لسماع الثلاثي الحبيس.»

حسن : لن يُعدِموك.. إنها مجرد مسرحية لحملك على الكلام.

الأخضر: لقد قالوا لي بأن ذلك سيتم غداً، في الساعة الواحدة وكأنهم ينتظرون جوابي.

مصطفى: من الصعب أن يحاط الإنسان علماً بمثل هذا النبأ. إنه لأشد صعوبة من عملية التعذيب نفسها.

الأخضر: عندما يسمع الإنسان حكم الإعدام.

يصبح الزمن مجرد ذكرى للإعدام المقبل.

الدموع تتوقف من تلقاء نفسها.

مع هدير شلال في الأعماق.

ولا يطفو على السطح إلا ذكريات آخر أيام الشتاء.

إنها ذكرياتُ المدرسة.

مصطفى: لقد كنا معاً..

الأخضر: وفي ذلك الشتاء بالذات، دمجنا أنا ومصطفى عصابتينا المتخاصمتين. وكنا السباقين الأشداء لمغادرة المدرسة، كما كنا أول من يصل إليها.

مصطفى: لقد كنت أفكر في ذلك.. كنت أفكر فيه هذا الصباح تماماً. والآن.. الآن أتحقق من أن حياتنا المشتركة لم يكن لها معنى مع ذلك قبل أن نكتشف لنا ذكرياتٍ مشتركة.. قبل أن يتأكد كل منا في أعماقه بأنه سيكون موجوداً أبداً إذا ما أُصيبَ الآخر.

الأخضر: لهذا فانني خلال تفكيري في أيام الشتاء قد أشركتك معي في سقطتي المقبلة كما كنا نشترك حين الخروج من المدرسة، زمن التزاحم والتدافع، في ذلك الوقت كنا نجهل حكم العدو.

أما الآن..

إني أشعر الآن بدمي ينبجس فوّاراً..

كلما واجهت هؤلاء الرجال...

الذين لم يتغيروا منذ تلك الأيام.

كنت أرى فيهم أعداء منذ الطفولة.

منذ ذلك الحين، كان الحقد يخنقني..

الحقد، والحاجة لأن أقف أمامهم يوماً ما

وجهاً لوجه، لأرى ما إذا كانوا قد هزمُونا حقاً...

مصطفى: لقد أدركنا منذ الصغر أنَّ علينا أن نقهرهم. فحينما قدرنا على الجري في الطريق. لجأنا إلى المقلاع، وعصابات الأطفال؛ كانوا يستعدون لضَرباتنا دون جدوى. كانت عصاباتنا تنتصر دائماً. ولكنْ لماذا نهلك نحن في النهاية عوضاً عنهم. ستكون قبورنا دائماً في انتظارهم. سيتساقطون كالذباب لمجرد غيابنا. إني أتساءل: كيف يستطيعون الحياة بدوننا؟

«يردِّد نصفا الجوقة، كلٌ بدوره، على التوالي..»

كيف يستطيعون الحياة بدوننا؟

إنهم سيتساقطون كالذباب لمجرد غيابنا.

كيف يستطيعون الحياة بدوننا؟

«وهكذا، ينخفض صوت السجين أمام صوت الجوقة المؤلفة من الجماهير، والتي تعيده كالصدى، مشيرة بنفس الوقت في نهاية هذا المقطع، إلى السجناء، وجلاديهم. في حين كان لنهاية المقطع ذاتها معنى فريد في فم مصطفى، ولم تكن لتشيرَ إلا إلى الجلادين. بعد صوت الجوقة ينطلق على الفور صوت الأخضر.»

الأخضر : لعل اقترابَ الموت هو الذي يجعل غضبنا أشد عنفاً.

أُترانا نعيش الأحلام الحربية لطفولتنا؟

أهي الحرب؟ أم أنه مجرد حُلم؟

منذ مئة عام وهم ينتزعون أسلحتنا.

لم يبق لدينا ما نستطيع به الذهاب حتى إلى الصيد.

«يردد قسما الجوقة، على التوالي، نهاية هذا المقطع.»

.. لم يبق لدينا ما نستطيع به الذهاب حتى إلى الصيد.

منذ قرن كامل وهم ينتزعون أسلحتَنا.

أهي الحرب؟ أم أنه مجرد حلمُ؟

«فترة صمت ثم يبدأ صوتُ حسن الكلام بهدوء.»

حسن : «في همس» أَلا تستطيعُ النومَ قليلاً؟

مصطفى: لم يعد النومُ من هذا العالَم،

لمن سيرى الفجرَ عارياً..

كعاشق يتحدى الليل في سباقٍ رهيب

«يردِّد قسما الجوقة، على التوالي»:

كعاشق يتحدى الليل في سباقٍ رهيب

لم يعد النوم من هذا العالمَ

لمن سيرى الفجرَ عارياً..

«يعود حسن إلى الكلام بنفس الصوت مع مصطفى في ثنائيٍ يجمِّع حوله نصفَيْ الجوقة التي تلاحق بنشيدها مارغريت.»

ونحن رفاقه في الزنزانة

نحرسُ الأخضرَ نفسه، وهو أبداً في عَجَلةٍ من أمره..

الأخضر نفسه الذي يضيق عن آماله الزمانُ والمكان..

لقد بدأنا نتعثر منذ الآن أمام نظرته..

يبهرنا البريقُ المعدني الذي يخترقه

في لحظة السمو..

حين يجتذبُ رأسُه الصاعقةَ

ويجعل البنادقَ تنحني أمامها..

«حين ينتهي صوتا حسن، ومصطفى، المندمجان في ثنائي يجمع نصفَيْ الجوقة، من إنشاد البيت الأخير حول مارغريت، تعيد الجوقةُ كلها المقطوعةَ بكاملها متوجهةً إلى مارغريت التي تلوذ بالصمت. ثم تغزو الجوقةُ السجن بسرعة دون أن تُرَى.. بينما تبقى مارغريت وحدها في الشارع. ويعود صوت الأخضر إلى الكلام.»

الأخضر : الآن، في هذا الوقت الذي تزنُ فيه أقلُّ كلمة أكثر مما تزنُ الدمعة.

أُحِسّ جيداً بالظلم العام

أرى وطني.. أراه فقيراً معدماً

أراه مليئاً برجالٍ قُطِعت رؤوسهم

أُحِسّ هؤلاء الرجال واحداً واحداً.

أحسهم في رأسي..

فهم ماثلون أمامنا أبداً..

ولم يعد لدينا الوقت الكافي للحاق بهم.

«الجوقة، وهي ما تزال غير مرئية، تردد هذا البيت الأخير».

لأنهم ماثلون أمامنا أبداً..

ولم يعد لدينا الوقت الكافي للحاق بهم.

«بعد ذلك يعود صوتُ الأخضر للكلام.»

الأخضر: في كلِّ عام، في كلِّ موجةٍ عميقة من موجات أشباحنا الطعينة بلا جدوى ننطح الصخور برؤوسنا من جديد وتتجدد الخسائر.

التي يطول رثاؤنا لها..

ولكن روحنا قليلاً ما تنتحب

فنحن نمسك بالزمن جريحاً بين أسناننا، كما يفعل عددٌ من المفكرين الشباب

الذين يغيّبون أنفسهم في المعابد.

فمن وراء الهياكل

تصلنا آلامٌ خطرة

تعكر موتنا في صميمه..

«في هذه اللحظة تبرز مجموعةٌ من الجنود يدخلون السجن ويخرجون منه على الفور وهم يواكبون ثلاثة سجناء مجهولين يُعْدَمون رمزياً في الطريق، على ضوء مصباح يشير إلى الفجر ثم يترك الجنود المسرح، وتخرج الجوقة من السجن، لتدفن بحركات صُورية، الجثث الثلاث، وهي

تدمدم بصلاة الأموات. ثم تصطف الجوقة على جانبي الطريق كالمرة السابقة حول مارغريت التي ما تزال تنتظر وفي أثناء ذلك يتوقف المصباح عن إلقاء نوره على الجثث، ليعلن للأخضر الذي يبقى وحده انبلاج الصباح.»

الأخضر : لقد دنت اللحظة الحاسمة. فليتركوني أَرى ضوء النهار ولو لمحاتٍ قليلة، علني أَستطيع طرد هذه الأفكار السود التي تطبق عليّ.

لقد حانت اللحظة التي يفقد فيها الإنسان رأسه إلى الأبد.

إنه لَغَزْوٌ مفاجئ.. كلُّ ما كنت أبحث عنه أصبح يلاحقني. يبحث عني. ها نحن تحت الرياح المعاكسة الهوج.. نُحْكَمُ بحقدٍ لا يَفْتُرُ، ولا يَكِلُّ.

«يُردد قسما الجوقة على التوالي..»

ها نحن تحت لفحات الرياح الهوج، نَرْزَحُ أَبداً تحت حكم حاقدٍ لا يَفْتُرُ، ولا يَكِلُّ..

«يدخل ضابطان السجن. تُسْمّع أَصواتٌ تدل على أنهما يعذبان الأخضر.»

الضابط الأول: سينفَّذُ فيك الحكمُ في زنزانتك.

«صَرَخات الأخضر.. يتراقص نور مصباح مذعور ماسحاً جدران السجن. بينما يردد قسما الجوقة بأسى عميق.»

الجوقة : في زنزانتك سَتُعْدَم.. سَتُعْدَم في زنزانتك.

«بعد سكون طويل يُسْمَع الاستجواب يُعَاوَدُ من جديد».

الضابط الأول: أنظر إليه.. أنظر كيف يَحْدُجُنا بنظراته. لم أرَ مثل ذلك قط.

الضابط الثاني: «للأخضر» لاحظ جيداً أننا لا نستجوبكَ إلاَّ حفاظاً على الشكليات فقط. إنَّ في نية الرئيس أن يرسلك إلى جهنم.. هيه.. تكلم..

الأخضر : «يصرخ في مكبر الصوت.» أهذا هو تنفيذكم للإعدام؟. هذا هو إذاً؟ الكلام لكم الآن.. هيا تكلموا..

«يدخل مدير الشرطة بدوره إلى السجن. إنه ضابط بدون لباس رسمي. يُسْمَع الأخضر وهو يصرخ صراخاً موجعاً أثناء دخوله. صمت.. ثم تُسْمَع نهايةُ الاستجواب»

مدير الشرطة: ماذا؟ ألم تنتهوا منه بعد؟

الضابط الأول: يُخَيَّل إليّ أنه قد فَقَد صوابه. إن التعذيب مع إنسان مثله لا يجدي. أقول ذلك مع احترامي الشديد لمقامكم. إنهم قد اعتادوا ذلك..

المدير : لقد قُضِي عليه مع ذلك.. إن رؤى التعذيب ستلاحقه طوال حياته. إنه سيصرُخُ كالممسوس. دعه يَعُودُ إلى

رفاقه. دعه يعود إلى أمه. فعندما يرون ما حلَّ به سيفهمون جيداً.

«يغادر الأخضر الزنزانة دون مرافقة أحد. يسير متعثراً في الزقاق المكتظ بالجمهور بين صفَّيْ الجوقة مواجهاً المنظر الذي يرمز للعدو. إنه منظر مارغريت التي تنهال عليها الجوقة المجتمعة بالتهكم.»

الجوقة : «مشيرة إلى مارغريت».

هذه هي الباريسية

روحُ المدينة المفتوحة

ابنة الجلاّد

النباتُ الشرس الذي ينمو على هامات قتلانا.

هذه هي الباريسية

صاحبة الألوف، ألغرَّة.

هذه هي الباريسية

الجاهلة

الغليظة القلب

ابنة الجلاَّد

لقد تأخرتْ.. تأخرتْ كثيراً

في الانضمام إلى جانب الضحايا..

هذه هي الباريسية..

«الأخضر يمسك بذراع مارغريت. تستمر الجوقة في الدمدمة.. يجيبها الأخضر وهو يجرّ مارغريت.»

الأخضر : «مشيراً لمارغريت»

لقد تأخرتْ.. تأخرت كثيراً في الانضمام إلى معسكر الضحايا. لن أحبها أبداً.

لكنني تحسرت عليها دائماً.

«منظر الشارع يبدو طبيعياً. بائعون. نساء محجبات يبتعن حاجاتهن.. الأخضر شارداً. البائع أمام شجرة البرتقال.»

المرأة : ها هو ذا الأخضر بلحمه ودمه. كيف يقولون إنه قد مات.

البائع : برتقال حلو

برتقال حامض

برتقال مز..

بالواحدة.. بالكيلو.. برتقال.

المرأة : هات برتقالتين.. يالحيةَ الشيطان! زنهُما. أنت تفضل البيع بالواحدة، أليس كذلك؟

البائع : «متملصاً» إذا كان الأخضر هو الذي سيدفع..

الأخضر : «يسمع الحوار من بعيد» هيه.. ماذا تقول؟

المرأة : «للبائع» خذ دراهمك.

الأخضر : «يصل إلى جانب العربة» ماذا تريد مني؟

المرأة : «بصوت منخفض» اتبعني يا أخضر. سأجعلك تعود إلى صوابك.

الأخضر : «بلهجة مشاكسة» لم أسمع ما تقولين.

المرأة : «تمسك بالأخضر من يده» لِنذهَبْ!

«يبتعدان».

المرأة : مَنْ أنا؟ في اعتقادك..

الأخضر : أنتِ أختي.. أو أختُ أحد الرفاق. سيَّان ذلك لديَّ.

المرأة : وماذا تُرَى قد حدَث لنجمة؟

الأخضر : «وعيناه متجهتان إلى السماء» كانت نجمة فيما مضى كنجم الدب الأكبر بالنسبة إلي، أجدُ على هَدْيها طريقي. ثم نمتُ. فكيف أستطيعُ تمييزها في وَضَح النهار؟

المرأة : «بأسى» لَشدَّ ما تغيرتَ!.. «لنفسها» إني أفضل أن أجلسَ على شاهدة قبره على أن أراه يتخبط كالأعمى أو كالمجنون. لعل الله يُسدل عليه الليل أخيراً.

«تنطفئ الأنوار جميعها لحظة. وعندما تشتعل من جديد يتبين أن المرأة – وقد أسفرت– هي نجمة نفسها. الأخضر يختفي وراء الكواليس».

«نجمة تصحب هذه المرة مارغريت وطاهر».

طاهر : «ثملٌ حتى الموت» تؤكل الحماماتُ صغيرةً، ونيئة.

نجمة : أهذا أنت أيها الثعلبُ الهرم، بشدقكَ القَذِر؟ لا أدري ما الذي يُمسكني عن هَرْس أسنانك؟ ما أرى ذلك يحتاج إلاَّ إلى ضربة واحدة من سواري.

تَعالي يا مارغريت، هذا الرجل لا يهمني. بالرغم من أنه هو سبب شقائي. لا تردي عليه تحيته.

«يبرز الأخضر، ويتجه فوراً إلى نجمة بينما تنسحب الشابتان.»

نجمة : «وهي ترتعد» تعالي يا مارغريت. لنذهبْ من هنا.

الأخضر : عفواً يا أختاه.. إلى أين تذهبين؟

نجمة : «تدير عينيها.» إنه مجنون. لا أود رؤيته.

«في هذه اللحظة يتسلل طاهر متخفياً. طاهر الذي كان مختبئاً خلف المسرح.»

طاهر : «تفلت منه صيحةٌ فيحبسها بين أسنانه».

يا إلهيّ! لقد أطلقوا الأفعى إذنْ..

«طاهر ينقضُّ على الأخضر، ويطعنه بخنجره. تهرب المرأتان والقاتل، كلٌّ في اتجاه، الأخضر يترنح، ويرتطم بشجرة البرتقال ويبقى معلقاً بها لئلا ينهار.. ينتشر الجمهور حوله.»

أحد الرجال: «تهزه الشفقة» وها هو مسكين جديد يمضي...

الأخضر: «وهو معلق دائماً بشجرة البرتقال» هيه! أيها الرجل! هل تبكي لأن الثورة قد حُطِّمَتْ؟ لا. لا تبك! لا داعيَ للبكاء..

رجل آخر: لقد مات أهلي جميعهم حرقاً بالنار. لقد حُوِّل بيتنا إلى رماد لقد ابتدأ هذا العام وانتهى بالنحس.

الأخضر: «مناضلاً ضد الهذيان» سنرقد معاً عندما تدعني هذه الشجرة أَسقط على الأرض.

امرأة : لقد كان لي ابن فيما مضى

أبغضتُ حتى اسمه

عندما يعود اسم الابن المفقود

إلى سر صباي العميق
أَراه يثقُلُ على أحشائي،
أكثر مما كان يثقُلُ عليَّ عندما كنتُ أحمله فيها،
في ذلك الزمن الذي كان ينام فيه آمناً
في حماي
قبل أن يُفصَلَ جسده عن جسدي
ويُكْرَهَ على رؤية النور،
في هذه الأرض الموحشة،
في هذه الصحراء التي لا يجد فيها فمي الجوعَ إليه.
وها أنذا أَمقت حتى الاسم الذي يطلقونه عليه،
لأنهم سيختطفونه بذلك من سِرّي
لم أعد أَترقب مرور السنين
برغبتي القديمة في السعة والهناء
أنا التي أَضعت ثلاثةً من الفصول الأربعة
لأَلِدَ مسخاً يُفْلِتُ مني أَبداً.. فما أراه.

«يتجمع الجمهور في جوقة تصطف على جانبي الطريق. رجال ونساء يقفون على صفين يواجه أحدهما الآخر ليكوِّنا قسمَيْ الجوقة. النساء وحدهن يرددن بصوتٍ واحد

المقطعَ السابقَ، مستعيداتٍ لأنفسهن الانتحابات الوالدية كأنهن قد مررن بالمأساة ذاتها. ثم تكمل المرأة التي تحدثت إلى الأخضر سيل اعترافاتها التي ترددها جوقة النساء كالصدى.»

المرأة نفسها «للأخضر»: لم يكد يبلغ ابني سن المراهقة حتى رحل إلى فرنسا. ولكنني أعلم أنه عاد. ومع ذلك لم يأتِ لزيارتي. إنه ما زال يحيا في الزقاق كالأشقياء.

«هنا لا تعيد جوقةُ النساء إلا نهاية المقطع لتوسيع معناه الأصلي. كل امرأةَ تتجه أَثناء الإنشاد إلى الرجل الذي يقابلها، وتشركه في اللوم الذي وُجِّه للأخضر.»

جوقةُ النساء: «تتوجه إلى الرجال الذين يواجهونها» ما رأّينا كم تزوروننا قط. لقد ثابرتم على العيش في الزقاق كالأشقياء.

«الأخضر الذي ما زال معلقاً بالشجرة يجيب حينئذ على اللوم الذي وُجه إليه سابقاً.»

الأخضر: اذهبي أيتها المرأة المسكينة.. فأمامكِ الوقتُ الكافي للبكاء.

ليس الزوجُ والولدُ إلا شيئاً واحداً بالنسبة لكِ...

لقد مات كلاهما

قبل أن تنفتح الأرض لتتلقى سقطتك. فهناك أب بالتبني واقف أبداً بالمرصاد ليجلل حياة ترملك بالسواد، ويلاحق ابنك اليتيم.

المرأة : «مقتربة من الأخضر» ماذا تقول يا بني؟ ماذا تقول هنا؟ أيمكن أن يكون سرّي الذي بحتُ به هو سرك نفسه؟ أم أن ذلك مجرد هذَيان، أو تنبؤ غامض!

الأخضر : لا جدوى من الكلام عن ماضيَّ...

المرأة : «تقترب أكثر فأكثر» قل لي بربك.. هل مات الأخضر؟ فالحداد قد خلق لي .. إني أوجه هذا السؤال المرّ لكل من يمرون بالنزع الأخير من حولي!

الأخضر : لن أستطيع أن أطمئنك أبداً.. أنا الفلاح الأخير.

الذي قُدِّمَ قرباناً على هذه الشجرة. لا أدري ما الذي يشدني إليها أهو الرجلُ الذي كنته؟

أم الخنجرُ الذي.. يقتلعني.

«هنا تأخذ جوقة الرجال بداية المقطع الأخير وتردده كأنه يمثلها، متوجهة إلى صف النساء الذي يواجهها».

جوقة الرجال «موجهة الكلام إلى النساء»:

لن نستطيع أن نطمئنكن أبداً.

نحنُ آخر الفلاحين.

الذين قُدِّموا قرابين على هذه الأشجار.

لا ندري ما الذي يشدنا إليها!

«الأخضر يعيد كل المقطع ويكمله، متوجهاً إلى أُمه التي لم تكن سوى المرأة ذاتها التي اقتربت منه وأدلت باعترافها من قبل».

الأخضر: لن أستطيع أبداً أن أطمئنك.

أنا الفلاَّح الأخير

الذي قُدِّم قرباناً على هذه الشجرة.

لا أدري ما الذي يشدني إليها؟

أهو الرجلُ الذي كنتُه..

أم الخنجر الذي يقتلعني..

ماذا يجدي أرملةَ أبي

أن تعرفَ أني قُتِلتُ

بيد زوجها الثاني الذي لم تختره!

هل رأيت الأفاعي التي تنشد المتعة

تتلوى داخلَ التبن؟ هكذا تتلوى ذاكرتي،

خلال حوادث القتل والنفي..

وهذا الخنجر الذي يُسَمِّرني إلى الشجرة،
إنه الانبهار الذي يُنَوِّم به العقرب الشاب
أنا المطوَّق بعوسج أصلي، ومنشئي،
لا أرى نفسي مديناً بشيء لهذا الأب الدخيل،
حتى في ذبحي، وتقديمي كقربان..
إنه أبعد من أن يكون إبراهيم الخليل.
وأنا لستُ إلا هرّاً سَلَخت جلده بومةٌ قبيحة
على أرطب غصن ..
ولا أنتظر إلا السقوط من على هذا الغصن
لأفقأ عينيْ هذا الطائر المشؤوم
المختبئ بين أغصان الشجرة التي يظنني راقداً فيها..

«قرعات طبول. تُخْلي الجماهير الثائرة المكان. لا يبقى إلا الأخضر المشدود دائماً إلى الشجرة. صوت الجوقة التي تتبعثر بعيداً».

الجوقة : يا مجاهدي الجزائر!
لا تتركوا معاقلكم..
إن ساعةَ المعارك ما تزال بعيدة..
يا مجاهدي الجزائر..

«يدخل مصطفى وحسن المسرح، وهما يتحادثان..»

مصطفى: لنذهب.. لننسحبْ إلى الجبال!

حسن : سيقدم لنا الفلاحون الملاجئ ..

مصطفى: فلنذهب.. لإعادة تجميع قوانا.

حسن : سنعود أشدَّ ضراوة.

مصطفى: «يتوقف عن الحركة» قف.. أليس هذا هو الأخضر؟ «مشيراً إلى الشجرة»..

حسن : هو بعينه دون شك.. إنه جريح من جديد.

الأخضر: مرحباً.. مرحباً بالرفاق.. لا تذهبوا دون أن تَنْبُسوا بكلمة... لا تتركوني كما يُتْرَكُ الميت.. دعوا لي بعض التبغ على الأقل..

مصطفى: إنك لا تستطيع أن تمكث في هذا الوضع «يمشي إلى الشجرة، يتبعه حسن». سنحملك من هنا..

الأخضر: «بلهجة عنيفة» ابقوا حيث أنتم! «ينكسر صوته، يعود إلى الكلام بصعوبة دون أن يخفض لهجته»! إني لم أعد أُحِسُّ الخنجر.. يخيَّلُ إلي أنه مغروس في الشجرة.. وإني أرنُّ كما يرنُّ الترسُ تحت الضَّرَبات دون أن أحسَّ شيئاً.. منذ اقتادني الموت

من كتفيَّ بلمستهَ المباغتة. ابقوا حيث أنتم، إذا أردتم نزع الخنجر فيجب عليَّ أن أدير لكم ظهري، وأتخلى عن الشجرة في حين أنني أموت هنا، لأحميها بهلاكي من البَرَد..

مصطفى: إنك تقف منتصباً في وَضْع الشنق الذي اخترته بنفسك.. وترفض أن تخطو خطوةً إلى الأمام..

الأخضر: اسأل الشجرة.. اسألها.. هل تقوى على السير.. أم أنَّ عليَّ أنا أن افتتح المسير!

مصطفى: سنحملك إذن!

الأخضر: لا تُحْمَلُ إلا الجثث.. اذهبوا.. واتركوا لي شيئاً من التبغ. «قرعات طبول..»

صوت الجوقة: «من بعيد»

يا مجاهدي الجزائر!

«ينتزع مصطفى وحسن نفسيهما من الرفيق المحتضَر».

حسن : لندَعْهُ هنا.. إنه يصارع جثته دون جدوى.. كيف يستطيع اللحاق بنا!

مصطفى: نعم.. لندَعْهُ هنا... ليس هناك أَشدُّ إِقناعاً من الأشجار بالنسبة له. إنه في صراع مع جثته..

«حسن ومصطفى يتفحصان طويلاً وجه الأخضر المظلم، الذي يحطم الصمت فجأةً، في الوقت الذي يغادر فيه حسن ومصطفى المسرح ببطء، كأنهما يتبعان موكباً وهمياً».

الأخضر : وداعاً.. أيها الرفاق!

أي شبابٍ مروَّع قضيناه!

«هنا تدخل المسرح أُم مصطفى باحثةً عن ابنها الراحل إلى المنفى. تتحسس الشجرة دون أن ترى الأخضر. ترتدي ثوب نزلاء المصحات العقلية الأزرق. وعلى رأسها ينتصب شعرها الذي لم يخالطه الشيبُ إلا لماماً. تلتمع في أَحداقها نظرة زائغة، لا تستقر على شيء. لم يعد لهيكلها المحطَّم، ولا لحركاتها المجهَدة شيء من الأنوثة. يتخلل هذيانَها من حين لآخر صرَخات طيور مشؤومة. تلفظ اسم مصطفى بصوتٍ يختلف كل مرة عن الأخرى، كأنها تستطيع من خلال هذا الاسم الذي تحول إلى عبارة سحرية أن تمسك بصورة ابنها المتوارية..»

الأم : مصطفى.. مصطفى .. «صيحات طيور» .. مصطفى..

ألأخضر : إنه دائماً هنا .. إنه ينتظرني في هذا العالم. وأنا أنتظره في العالم الآخر..

إننا نقضي العمر يودع بعضنا بعضاً.

الأم : «وهي ما تزال في حالة تنويم» **مصطفى.. مصطفى..**

«صيحات طيور».

الأخضر : «يردد كالصدى» **مصطفى!**

«صيحات طيور جارحة، تنتهي بمثل أغاريد الربيع».

«تنطوي المجنونة على نفسها، خافضةً رأسها، ثم يرتفع صوتها خفيفاً، ممزقاً.. تردد صداه جوقةُ النائحات غير المرئية».

الأم : «تجلس القرفصاءَ أمام شجرة البرتقال، التي تمسك بالأخضر». على مقعد المَصَحَ الكبير

أنا المجنونة الهاربة..

أنا الأرملة المؤجلة والأم المحجورة

«صيحات الطيور، تطلقها جوقة النائحات اللواتي يُعِدْنَ المقطع السابق. ثم يستمر الحوار بين الأخضر المحتَضَر، وأم مصطفى».

الأم : «تعود إلى تحسس الشجرة حول الأخضر».

لقد تركتُ اللَّبوءات تكبر

دون أن أتمكن من مَشْطٍ شعرها..

ذلك ما تنبأت لي به الطيور..

لقد ذبحوا الابن
وحلقوا رؤوس البنات!
ذكرى لأمهم المجنونة..
الطيور تثب هازئةً بي
هازئة بي، هازئة
بابني الذي ينتظرني على المقعد
مقعد المصح الكبير.
الأخضر: كان ينتظرني أيضاً..
في المكان الذي تهذي فيه أمه
دون أن يعبأ بمشنقتي الخضراء
لقد تركني دون أن ينبس بكلمة..
ليشدَّ جسده إلى أشجار أخرى..
هكذا تتعاقب مصائرنا..
رجالاً، ونساءً، أجساداً، وأموالاً
لا شيء يقف في وجه هذا الرحيل.
لقد أصبحت أم رفيقي أمّاً لي..
في هذه الوحشة الرهيبة الهائلة..
«تأخذ جوقة الرجال غير المرئية في الإنشاد من بعيد».

الجوقة : ويهبط الظلام.. وينحني عالمنا بأسره على نافذة العَدَم..

لا تلقوا الحجر على المجنونة..

فهي التي نهضت لتوصدَ النافذة

ولهذا تَلِفَتْ عيناها.

الأم : «تقع، ثم تحاول الوقوف، وهي هاربة».

الظلام هو السبب في سقوطي

وهذه الطيور تسخر مني..

«ينفجر مكبر الصوت صائحاً: صدمة كهربائية. صدمة كهربائية. صدمة كهربائية. بينما تضاء الشجرة بشرارة صاعقة. وفي الوقت نفسه تطلق الطيور المشؤومة صيحاتها».

إنها تسخر مني.. إنها تهزأ بي.

«تبدأ الجوقة كلها الإنشاد، بينما تقفز أم مصطفى خارج المسرح».

الجوقة : هكذا تتعاقب مصائرنا..

رجالاً، ونساءً.. أجساداً وأموالاً..

لا شيء يقفُ في وجه هذا الرحيل..

«تعصف الريح بشدة. بينما يثبت الأخضر نفسه على الشجرة، وهو يبذل جهده الأخير».

الأخضر : ما أكثر الرجالَ، والنساء الذين مروا على هذه الطريق دون أن يكترثوا لمشنقتي الخضراء.. يا للموكب الحزين الذي يرقب فيه الميتُ الغائبين.. ثم يلحق بهم..

«ينطفئ النور. يشتد عصف الريح. إنها ريح الموت. يدخل المسرحّ البائع وعربتُه تحت إضاءة خفيفة».

«يعود الأخضر والشجرة إلى الظلمة».

الأخضر : جميع العقوبات هي كعقوبة الإعدام لمن يبلغ الصميم.. صميمَ القدر..

هنا يتلخص وجودي في نسمة

أما لساني الذي نَمَتْ عليه

الطحالب أخيراً..

فسيكون غذاءً للكون بأسره..

عليَّ الآن أن أتقيأ كل شيء..

الآلام، والهموم، والأوهام، والعلوم.

عليَّ أن ألفظَ كل شيء كالمحيط..

يتقيأ اللآلىء، والجثث..

عليَّ أن أمضي إلى الاعترافات..

إذا ما أردت الانطلاق خاويَ الوفاض..

إلى الجانب الآخر من القدر..
حيث لا يدخل قناع المأساة
ولا جمهور، ولا مارَّة..
هناك في أحضان الأعالي العذراء
حيث تفيض القبلةُ بعطائها فتنقلب نجمة..
حيث تبلغُ ذؤاباتُ الشَّعر القَدَم..
حيث المعرفةُ سطوعُ برقٍ أَمين..
وحيث الحبُّ ليلةٌ واحدة بلا ذكريات..

«ظلام.. ضوء.. قرعات صنج مديدة.. البائع نائم تحت الجدار. الأخضر مستند إلى الشجرة»..

الأخضر : هيه.. أيها النائم!

البائع : «دون أن يرفع رأسه». تابع كلامك يا بني! أنا لا أومن بالأشباح مطلقاً. تستطيع أن تختبئ خلف الأشجار. لقد جاوزت سنّ الخوف..

الأخضر : «مهمهماً بين شفتيه»

دائماً في لحظة الاعترافات.. يبدو المسرح خالياً. ليكن ذلك. سأكون أنا الزنزانة كلها.. إن الغائب

الوحيد الذي ما يزال يثقل علي من بين الغائبين بدون مبرر هو أبي.. أبي الذي جيء بجثمانه مدرجاً في لحاف في حين كنت انتظر منه نهاية قصة، ونهاية حلم طالما اختلطا في مخيلتي..

لقد انغمس ذات يوم في الخمارات، بصحبة السكارى والمجرمين. كانوا كلهم يبحثون عن أجنبية بارعة الجمال واسعة الثقافة. كانت على درجة من الجمال والتحفظ جعلت أصدقاء أبي يقتتلون حتى الفجر ليشقوا لهم طريقاً بين الجموع، ويلحقوا بها في الفندق الفخم الذي يستقبلها فيه عشيقها. كان أبي هناك.. يتآكله الحقدُ والغيظ، وهو يقتفي خطوات هذه المرأة التي يلاحقها الناس باحترام في الأعراس. لقد جرح في ذلك اليوم جرحاً بليغاً بموس حلاقة ألقاها في وجهه رجلٌ عجوز من إحدى النوافذ، بينما كان أبي يرقب المحْظية اللعوب، ويُلْقي في وجوه أصدقائه بثآبيب من الدم الثَّخين الملتهب..

ولم أستطع أنا بدوري أن أمتنع عن إطلاق صرخات أليمة، لا لشيء، إلا لأخفف عن نفسي وقع العار، والنزوات التي غاص فيها أبي حتى الأعماق. كنت

في ذلك الحين قد ولدت، كنتُ أصرخ ليلاً ونهاراً لأشير إلى الرجل النذل الذي يحملني بين ذراعيه ليعرضني أمام موضوع حقده وغيظه، أمام الأجنبية التي لم تكن لتغفل الظهور أمام نافذتها في الساعات المتأخرة من الليل، حيث كنت أعوي من النعاس.. ومن هذا الهوى الجامح الذي يحمله أبي.

وأخيراً نزلت الأجنبية بخطواتٍ رشيقة، الأجنبية بلحمها، ودمها، بوجهها غير النقي، وحركاتها التي كان الحشد يتأملها وكأنها طقوس عبادة.. المرأة ذات العطر المجهول، التي أحاطتني بذراعيها بينما رحت انشق أثقل وأجمل أثدائها.. (كان يبدو لي أن لها أثداء أخر، لأنها لا تشبه أمي التي لها ثديان فقط..) ووقف أبي مسمراً أمام الأجنبية التي كانت تداعبني باسمة، وأمام الناس الآخرين الذين كانوا يتوقفون عند هذا المشهد الفريد.. وقف غارقاً في صمت كان يملأني بالندم والغيرة. أنا الطفل الذي لم يتجاوز عمره السنوات الست.. والذي أصيب بأهواء والده، أنا الذي كنتُ أقوى منافسيه في الوقت الذي لم تكن أسناني جميعها قد ظهرت.. أنا الذي لم أشأ أن أصدق أن تلك

الأجنبية قد اختفت، وأن أبي قد أُدْرِجَ في لحاف وحُمِلَ إلينا بينما كنتُ العبُ في الشارع مع نجمة.. نجمة ابنة الأجنبية التي اختطفها والدي.

«عند هذه الكلمة الأخيرة يهوي الأخضر أمام شجرة البرتقال المصعوقة.. تضاء الأنوار.. يتسلق عليّ شجرة البرتقال.. تلاحقه نجمة.. قرعات صنج مديدة.. تختفي جثة الأخضر رويداً رويداً.. تحت سحابةٍ من الأوراق اليابسة. يجلس علي فوق قمة الشجرة، ويدلي ساقيه من عَنْ طرفَيْ الغُصُن. يقتطع غصناً ذا شعبتين ليصنع منه مقلاعاً».

نجمة : انزل من هنا! ألا تريد النزول؟ هيا انزل.. واعطني هذه المدية!

علي : أنها مُدْيَةُ والدي.. إنها مُدْيَتي..

نجمة : لماذا حشوتَ جيوبَكَ بالنارنج؟ أَلَقِ به إلى الأرض! ألم أَقُلْ لك مائةَ مرة إن هذا البرتقال مسموم؟ هيا.. انْزِلْ..

«يبقى عليّ فوق الشجرة، يغـرفُ برتقـالات مـن جُيُوبـهِ، ويضعها في مِقْلاعهِ، ويصوِّب باتجاه الجمهـور. مَطَـرٌ مـن البرتقال في الصالةِ.. يُنْزَل الستار الذي تنهال عليـه ضَـرَبَاتُ المِقْلاع.. بينما يُسْمَعُ صوتُ الجوقة يدمدم من بعيد»:

يا مجاهدي الجزائر.

لا تغادروا معاقلكم..

«ظلام.. نور.. قَرَعاتُ صنج مديدة».

(انتهــت)